حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ وَالْوَسِيط

٨

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
رئيس مجلس الإدارة
أ.د. أيمن فؤاد سيد

الهيئة المصرية العامة للكتاب
رئيس مجلس الإدارة
د. هيثم الحاج علي

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ وَالْوَسِيط

مجلة سنوية محكمة تعنى بالتاريخ الإسلامي والوسيط
يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط
بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية

كل الحقوق محفوظة
للهيئة المصرية العامة للكتاب

الترقيم المطبوع
2735-3923

رقم الإيداع بدار الكتب
2013/18750

الترقيم الإلكتروني
2735-4725

موقع المجلة على بنك المعرفة:
hsew.journals.ekb.eg

٢٠٢٠م

قطعة ٤ بلوك ٧ – المنطقة التاسعة – شارع د. رؤوف عباس- مدينة نصر – القاهرة
تليفون: ٠١١٢٧٣٨١٩١٢ – ٢٧٤٢٨٢٩١ – ٢٧٤٢٨٢٩٦ – فاكس ٢٤٧٢٨٢٩٨

Email: Seehist1945@yahoo.com

الهيئة المصرية العامة للكتاب

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ
التَّاريخِ الإسلاميَّ والوسيط

مَجلة عِلميَّة مُحَكَّمة

تُصْدرها

الجمعية المصرية للدِّراسات التاريخية

المراسلات : الأستاذ الدكتور أيمن فؤاد سيد

رئيس مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

eegyptian.historical2021@gmail.com

العدد الثامن

القاهرة

١٤٤١هـ / ٢٠٢٠م

رئيس مجلس الإدارة أ.د. أيمن فؤاد سيد

هيئة التحرير

رئيس التحرير: أ.د. حسين سيد عبدالله مراد

مديـر التحرير: د. محمد فوزي رحيل

أ.د. صلاح الدين علي عاشور

أ.د. عبير زكريا سليمان

أ.د. نهلة أنيس مصطفى

د. عبدالناصر إبراهيم عبدالحكم

الهيئة الاستشارية الدولية

أ.د. إبراهيم عبدالمنعم سلامة (مصر)

أ.د. اسحق تاوضروس عبيد (مصر)

أ.د. حاتم عبدالرحمن الطحاوي (مصر)

أ.د. عبدالقادر بوباية (الجزائر)

أ.د. عبدالله بن سعيد الغامدي(السعودية)

أ.د. عبدالهادي ناصر العجمي (الكويت)

أ.د. عفاف سيد صبرة (مصر)

أ.د. فتحي عبدالفتاح أبو سيف (مصر)

ا.د. قاسم حسن السامرائي (العراق)

ا.د. لطفي بن ميلاد (تونس)

أ.د. محمد أحمد بديوي (مصر)

أ.د. محمد عيسي الحريري (مصر)

أ.د. محمد الناصر صديقي (تونس)

Prof. Dr. Albrecht Fuess (Germany)

Prof. Dr. Sylvie Denoix (France)

Prof. Dr. Tetsuya Ohtoshi (Japan)

الآراء الواردة بهذه المجلة تعبر عن وجهة نظر أصحابها

ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الجمعية أو السمنار أو الناشر

شروط النشر بالحولية

- ترحب الحولية بنشر البحوث العلمية المبتكرة في التاريخ الإسلامي والوسيط باللغتين العربية والإنجليزية.
- يكون البحث في حدود ٣٥ صفحة، بما في ذلك الحواشي اللازمة والملاحق وقائمة المصادر والمراجع.
- ترسل البحوث على موقع الحولية على بنك المعرفة ولن يلتفت إلى الأبحاث التي ترسل عن طريق آخر.
- يرفق الباحث مع البحث سيرة علمية مختصرة (CV)، وملخصًا للبحث باللغة العربية ولغة أجنبية في حدود (١٥٠) كلمة لكل منهما والكلمات المفتاحية.
- يقدم الباحث إقرارًا كتابيًّا بأن البحث لم يسبق نشره في أي مجلة علمية أو غيرها، وعدم الدفع به إلى النشر في جهات أخرى[1] بعد موافقة الحولية على نشره.
- تقدم الخرائط والأشكال والرسوم البيانية بأصولها الصالحة للطباعة، وفي حال رغبة الباحث نشرها ملونة يلتزم بدفع تكاليفها.
- تتمتع الحولية بحق الملكية الفكرية للبحوث التي تنشرها، ويمكن للباحث إعادة نشر بحثه في جهة أخرى[1] بعد مرور خمس سنوات على النشر بالحولية، وبموجب أذن كتابي من رئيس تحرير الحولية.

- لا تقبل الحولية البحوث التي سبق نشرها في أي مجلة علمية أو غيرها.
- توضع الهوامش مرتبة بطريقة متسلسلة في أسفل البحث.
- تخضع البحوث قبل النشر للتحكيم العلمي على نحو سري (معمي).
- يتم تقويم البحث وفقًا للعناصر التالية:
  - أن يكون البحث مبتكرًا، ومضمونه متكامل علميًّا.
  - وضوح المنهج، وملائمته لموضوع البحث.
  - رعاية الإخراج العلمي وتوزيع عناصر البحث.
  - سلامة اللغة ووضوح الصياغات والعبارات.
  - كفاءة المراجع وصحة التوثيق، وسلامة الهوامش، ودقة استخدام المصادر والمراجع.
- البحوث التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها، حتى وإن كانت طفيفة، وفي حال ما إذا رأت الحولية عدم نشر البحث، تخطر صاحبه بالاعتذار عن عدم النشر مع بيان الأسباب.

مُقَدِّمَة

يُسعد مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية، بالتعاون مع أسرة سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط بالجمعية، أن يقدِّما لكل المهتمين بحقل التاريخ الإسلامي والوسيط، الحولية رقم (٨) لعام ١٤٤١هـ/ ٢٠٢٠م.

وهذا المجلَّد من الحولية، يتضمن خمسة بحوث متميزة من البحوث المُحَكّمة، تتناول عددًا من موضوعات التاريخ الإسلامي، والوسيط. **أولها**: "المهمشون في الأندلس من واقع كتب النوازل المعيار للونشريسي نموذجاً"، وعرض **الثاني**: "السياسة الخارجية لأسرة يوان المغولية تجاه الشرق الأقصى"، أما **البحث الثالث**: فعن "تحديد مكان المعركة وزمانها في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية". وتناول **البحث الرابع**: "الدين والأدب وحركة التأليف والترجمة في الحبشة في عهد الأسرة السليمانية". وجاء **البحث الخامس والأخير**: "عن الحج إلى مكة الطريق والشعائر دراسة مقارنة بين رحلتى فارتيما وبتس".

وبعدُ... فنتقدم بأرقى كلمات الثناء والشكر لإسهامات الباحثين، راجين أن نفيدَ جميعًا من جهدهم وفكرهم، وأن يكونَ الجهدُ قد أضاف إلى المكتبة التاريخية جديدًا، وأن تحوزَ هذه الأبحاث رضاءَ الباحثين والقرَّاء.

ونأملُ أن يسهم الباحثون المتخصِّصون ببحوثهم في أعداد الحولية القادمة، وأن نتلقَّى الاقتراحات حول ما يضيف إلى الحولية الجديدة في حقل البحث التاريخي الإسلامي والوسيط.

واللهُ ثم الوطن العزيز من وراء القصد،،،

أسرة التحرير

المحتويات

١- المهمشون في الأندلس من واقع كتب النوازل المعيار للونشريسي أنموذجًا ١١-٦٨

عبدالباقي السيد عبدالهادي

٢- السياسة الخارجية لأسرة يوان المغولية تجاه دول الشرق الأقصى ..... ٦٩ - ١٠٠

مروة صلاح الدين محمد

٣- تحديد مكان المعركة وزمانها في عصر المماليك البحرية ... ١٠١ - ١٣٧

سماح عبد المنعم السلاوي

٤- الدين والأدب وحركة التأليف والترجمة في الحبشة في عهد الأسرة السليمانية ٧١٤-٩٦٧هـ/ ١٣١٤-١٥٥٩م ١٣٩ - ١٨٢

محمد جاب الله علي عبد الحميد أبو خشيم

٥- الحج إلى مكة الطرق والمناسك دراسة مقارنة بين رحلتَي فارتيما وبتس ..... ١٨٣ - ٢٤٨

محمد فوزي مصري رحيل

حَوْلِيَّةُ سِمِنَارِ التَّارِيخِ الإِسْلَامِيِّ وَالْوَسِيط ٨ (٢٠٢٠)، ١٨٣–٢٤٨

الحج إلى مكة – الطرق والمناسك

(دراسة مقارنة بين رحلتَي فارتيما وبتس)

Hajj to Mecca
The Roads and the Rituals

A comparative study between Varthema and Pitis accounts

محمد فوزي مصري رحيل [١]

الملخص:

في هذا البحث نعقد مقارنةً بين اثنتين من الرحلات، التي حصل منها الأوربيون على معلومات جديدة عن الشرق المسلم: الأولى جاءت في إطار التجسس الصريح متمثلةً في رحلة فارتيما، والثانية جاءت في إطار استنطاق الأسْرى العائدين متمثلةً في رحلة جوزيف بتس. وسوف يدور محور الدراسة حول ما قدم هذان الرجلان للأوربيين من معلومات عن مناطق حج المسلمين، ومهْد الإسلام الأول في بلاد الحجاز، من حيث طرق الوصول إليها، وأوضاعها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بجانب ما رسموه لشعائر فريضة الحج – ركن الإسلام الخامس– لننظر هل تحرَّى

(١) مدرس التاريخ الإسلامي – كلية التربية – جامعة مطروح، عضو مجلس إدارة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

كلاهما الدقة فيما قدَّم، أم أنه سعى لإرضاء العقلية الأوربية؟ من خلال سوْق خرافات طالما رُدِّدت في كتابات سابقة، أقنعوا أنفسهم بها بخلاف الحقيقة، ناهيكَ عن رصد أوجه تشابه واختلاف ما دوَّنهُ فارتيما وبتس.

Abstract

This paper is a comparative study between two travelers' accounts, from which the Europeans obtained new information about the countries of the Hejaz region. The First is, Varthema's account, which has been written as an espionage report. Whereas the second is Pitis' account, which has been written as a report by a former captive. The paper contains two accounts' data about related to Islam pilgrimage place - the cradle of the first Islam- in the countries of Hijaz, such: access roads, political, economic and social conditions.

In addition to what they wrote about Hajj rituals in their imaginations. Let's look at whether they both sought accuracy in what they presented, or did they seek to satisfy the European mentality? Through telling of myths, occasionally were mentioned in previous writings, they convinced themselves of a way of the truth, not to mention observing the similarities and differences of Varthema and Pitis.

كانت السَّيْطرة على أرض المسلمين في جنوب البحر المتوسط حلمًا راود الأوربيين طويلًا، حققوا شيئًا منه خلال ما عُرف بالحروب الصليبية على بلاد الشام ومصر وتونس خلال القرنين ١٢، ١٣م، لكن لم يطل بهم الحُلم واستيقظوا وقد أُلقي بهم في أمواج البحر المتوسط بفتح عكا عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م)(٢) على يد السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون(٣)، ومع ذلك عاودتهم أحلام اليقظة من جديد، ومن ثَمَّ سعَوْا للحصول على مزيد من المعلومات عن أرض المسلمين ليس فقط مناطق المواجهة جنوب وشرق المتوسط، لكن أيضًا اتسعت لتسْبر أغْوارَ بلاد المسلمين؛ لمعرفة مصادر قوة وثروة هؤلاء القوم الذين كلما أصابتهم كبوة خرجوا منها أقوى ممَّا كانوا قبلها(٤)، ومن هنا كثر الجواسيس متنكرين في

---

(٢) محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين فتح عكا، عين للبحوث، القاهرة، 2009م، ص ص ٣٠٥-٣٣٠.

(٣) **الأشرف خليل بن قلاوون:** الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي، وُلد في القاهرة في عام 666هـ /1267 م – تُوفي في تروجة قرب الإسكندرية في 12 محرم693 هـ 31 / ديسمبر1293 م، هو ثامن سلاطين الدولة المملوكية البحرية. تولّى شؤون الحكم إلى جانب والده لفترة قصيرة من الزمن، وبعد وفاة الأخير نُصب خليل سلطانًا عام 1290 وبقي حتى اُغتيل في ديسمبر1293 م، يُعتبر من أبرز سلاطين أسرة قلاوون والدولة المملوكية. أشهر إنجازاته فتح عكا والقضاء على آخر معاقل الصليبيين في الشام، بعد أن استمر وجودهم فيها مائة وست وتسعين سنة. عنه انظر: المقريزي (أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ – ١٤٤٢م)، السلوك في معرفة دول الملوك، ج١، ق٣، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ص ص ٧٥٦-٧٩٣؛ الدواداري (ابن أيبك، ت٧١٣هـ- ١٣١٣م)، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨، تحقيق أولرخ هرمان، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، ١٩٧١م، ص ص ٣٠٣-٣٥١.

(٤) لمزيد من التفاصيل حول ذلك الأمر انظر: رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ترجمة د.سيد الباز العريني، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٧٢٢-٧٢٥.

صورة مسلمين، أو حديثِي عهْد بالإسلام، بجانب استنطاق من عاد من أبنائهم بعد الأسْر ليصفَ لهم أحوال المسلمين على حقيقتها. وفي هذا البحث بعوْنِ الله وحوْلِهِ نعقد مقارنةً بين اثنتين من الرحلات، التي حصل منها الأوربيون عَلى معلومات جديدة عن الشرق المسلم: الأولى جاءت في إطار التجسس الصريح متمثلةً في رحلة فارتيما، والثانية جاءت في إطار استنطاق الأسْرى العائدين متمثلةً في رحلة جوزيف بتس. وسوف يدور محور الدراسة حول ما قدم هذان الرجلان للأوربيين من معلومات عن مناطق حج المسلمين، ومهْد الإسلام الأول في بلاد الحجاز، من حيث طرق الوصول إليها، وأوضاعها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بجانب ما رسموه لشعائر فريضة الحج - ركن الإسلام الخامس- لننظر هل تحرَّى كلاهما الدقة فيما قدَّم، أم أنه سعى لإرضاء العقلية الأوربية؟ من خلال سوْق خرافات(٥) طالما رُدِّدت في كتابات سابقة، أقنعوا أنفسهم بها بخلاف الحقيقة، ناهيكَ عن رصد أوجه تشابه واختلاف ما دوَّنهُ فارتيما وبتس. وسوف يكون عماد منهجنا في هذه الدراسة هو المنهج المقارن، وهو منهج قليل الاستخدام في الدراسات التاريخية العربية. ومن الجدير بالذكر أن الرحلتين يمكن أن تدرجا ضمن الكتابات الاستشراقية(٦) التي مهدت

(٥) كثرت الكتابات الخرافية عن الإسلام والمسلمين في أوربا العصور الوسطى، وقليل منها ما وصل إلى لب الحقيقية ومن هذه الكتابات صورة الإسلام في نبوءة ميثودس المجهول، وعند المؤرخ الإنجليزي الشهير متى الباريسي. انظر: عبد العزيز رمضان، صورة الإسلام في نبوءة ميثودس المجهول، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٤٤، مايو ٢٠٠٦م، ص ص ٩-٣٤؛ محمد فوزي رحيل، صورة الإسلام في التاريخ الكبير لمتى الباريسي، مجلة التربية، العدد ١٧٥، الدوحة، ٢٠٠١م، ص ص ٢٤٥-٢٦٥.

(٦) لمزيد من التفاصيل حول الاستشراق: مفهومه، ودوافعه، وأهدافه انظر: فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الإسلامي (القرون الإسلامية الأولى)، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ١٩٩٨م ص ص ٢٥-٤٨.

الطريق أمام موجة الاستعمار الأوربي في العصر الحديث، بحكم غزارة المعلومات التي وفرتها الرحلتين للأوربيين حول بلاد الحجاز.

الأوضاعُ السياسيةُ إبان الرحلتين:

إن معرفة الظروف التاريخية التي تمت خلالها هاتان الرحلتان أمر ضروري؛ فقد كان لأوربا في أواخر القرن الخامس عشر، وبدايات القرن السادس عشر أهداف خاصة، لإعادة تقييم معارفها عن العالم الإسلامي، وكذلك إعادة ترتيب أوراقها، لمواجهته بأساليب جديدة قوامها العلم والمعرفة، بالإضافة إلى أسباب عملية ألحَّت على الأوربيين، لتعميق معرفتهم بالنظم السائدة في العالم الإسلامي(٧). وقد تزعَّم الأسبان والبرتغاليون تلك الحركة(٨).

أما عن الأوضاع السياسية إبان رحلة فارتيما، فقد بدأ رحلته عام ٩٠٨هـ (١٥٠٣م)، وفي طريقه للحج اجتاز الشام والحجاز، اللتين كانتا جزءًا من سلطنة المماليك(٩)، وكان الجالس على عرش السلطنة في ذلك

(٧) – محمد محمود السرياني و معراج نواب مرزا، مكة المكرمة في عيون غير المسلمين دراسة في تقييم أهداف وانطباعات ومعارف الرحَّالة النصارى عن العاصمة المقدسة، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، العدد ٣٠٧، ١٤٢٦هـ / ١٤٠٥م، ص١٦، وانظر أيضًا عبد الحميد البطريق وسليمان نوار، التاريخ الأوربي الحديث، دار الفكر العربي، ١٩٩٥، ص ٤٢-٤٥.

(٨) سبق الأسبان والبرتغاليون غيرَهم من الأوربيين في حركة الكشف الجغرافي بسبب الحماسة الدينية التي ولَّدت الصراع الكبير الذي دار على أرض شبه جزيرة أيبيريا أثناء تواجد المسلمين فيها، فلما أفلحوا في طرد المسلمين من الجزيرة تتبعوهم في شمال أفريقيا ثم ساحل أفريقيا الغربي تمهيدًا لحركة كشف طريق الرجاء الصالح. انظر: شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق، تاريخ أفريقيا، القاهرة، د.ت، ص ٦٧، ٨٨.

(٩) خضعت بلاد الحجاز لحكم المماليك في عهد الظاهر بيبرس عام ٦٥٨هـ. عن ذلك انظر ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ١٤٦؛ هورخرونيه (ك. سنوك)، مكة المكرمة، ج١، ترجمة على عودة الشيوخ، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ص ١٨٠.

الوقت هو السلطان قنصوه الغوري (٩٠٢- ٩٢٢هـ/ ١٤٩٧-١٥١٦م)[١٠] ولم تكن أحوال السلطنة في عهده تسير على نحو مُرضٍ؛ فقد تولَّى الحكم بعد فترة من الاضطرابات السياسية راح ضحيتها عدد من السلاطين، وفي سبيل إصلاح الأحوال فرض مغارم جمَّة على سكان السلطنة، ضج منها الناس، وخاصة أن جزءًا كبيرًا منها ضاع في الإنفاق على عمائر السلطان، وهو ما ندَّد به المؤرِّخ ابن إياس المعاصر لتلك الفترة[١١]. وفي الوقت نفسه كانت هناك حرب ضروس على حكم مكة بين الإخوة من الأشراف[١٢]، وقد ذكر فارتيما في رحلته أن الذي يحكم مكة يحمل لقب

---

(١٠) عن ظروف ولاية قنصوة الغوري انظر: ابن إياس (محمد بن أحمد، ت ٧٣٢هـ / ١٥٤٢م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج4، دار النشر فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٩٧٥م، ص ص5-1.

(١١) ابن إياس، بدائع الزهور،ج٥، ص٨٩-٩٠؛ سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٩٥-٢٩٦.

(١٢) حكم مكة خلال هذ الفترة الأشراف المنحدرون من السلالة النبوية، على جدهم أفضل الصلاة والسلام، تابعين لسلطان المماليك في القاهرة، وفي عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م توفي هزاع بن محمد بن بركات وتولَّى الحكم أحمد بن محمد بن بركات الملقب بالجازاني غير أن أخاه بركات قاد جيشًا واستولى على مكة ففر الجازاني هاربًا، لكن في أوائل ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م استطاع إزاحة أخيه والعودة ثانية للشرافة التي لم يبق فيها أكثر من عدة أشهر حتى عاد بركات بجيش قوى أعاده للشرافة وهكذا حتى عاد أحمد للحكم غير أنه مات مقتولًا بإيعاز من أخيه حميضة. عن هذا الصراع انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، حوادث ٩٠٧-٩٠٨-٩٠٩هـ؛ رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٥٠، حاشية ٤٢؛ محمد طه صلاح البكري، الحجاز ٨٥٩-٩٢٣هـ/ ١٤٥٤-١٥١٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ص ٢٩.

سلطان[١٣]، ولم تكن يد الدولة المملوكية بعيدة عنه، سعيًا لبقاء الحجاز في قبضتها، في وقت عجزت فيه عن فرض هذه التبعية بالقوة بسبب كثرة الاضطرابات في أواخر أيام السلطنة[١٤]. وهذا الانهيار الذي اعترى السلطنة المملوكية كان عاملًا مساعدًا في تيسير مهمَّة الجواسيس، ومن بينهم فارتيما الذي دفع مبلغًا ماليًّا للأمير المملوكي المسئول عن رحلة الحج الشامي حتى يتخفَّى في ثوب مملوك دون أن يتحرَّى هُويته[١٥]، في الوقت نفسه تدهور اقتصاد دولة المماليك؛ بسبب إهمال أوضاع البلاد، وانهيار التجارة الخارجية، على نحو غير مسبوق في ظل كشف طريق رأس الرجاء الصالح بقيادة بارثليميو دياز Bartholomeo Diaz[١٦] عام ٨٩٢هـ (١٤٨٧م) [١٧]، ثم الوصول على الهند بقيادة فاسكو داجاما Vasco De

---

(13) Wolf M, One thousand Roads to Mecca, New York, 1997, p81.

حمل حكَّام مكة لقب أمير، وكان تابعاً للسلطان المملوكي في مصر في زمن رحلة فارتيما، وللسلطان العثماني في استنبول في عصر بتس، غير أن بعض المصادر أشارت إلى حكام مكة بلقب السلطان ربما بسبب المكانة السامية لمكة المكرمة. انظر: العيدروس (عبدالله بن شيخ بن عبد الله)، النور السافر في أعيان القرن العاشر، تحقيق أحمد حالو ومحمود الأرناؤوط و أكرم البوشي، دار صادر بيروت، ٢٠٠١م، ص ٣٣٩.

(١٤) محمد طه البكري، الحجاز، ص ٣٠.

(١٥) رحلات فارتيما، ص ٣٥.

(١٦) **بارثلميو دياز:** هو ملَّاح برتغالي كلَّفه الملك يوحنا الثاني حاكم البرتغال بحملة كشفية بحرية لارتياد الساحل الإفريقي تتمة لما قام به الأمير هنري الملاح قبل موته؛ وذلك سعيًا للوصول للهند، وقد تمكن بالفعل لأول مرة من الوصول لطرف إفريقيا الجنوبي، وأطلق الملك يوحنا الثاني على هذا الطريق "رأس الرجاء الصالح". انظر: عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوربي الحديث، ص ٤٦.

(١٧) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج٤، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م، ص ٣؛ سعيد عاشور، أوربا في العصور الوسطى، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٥٩٠؛ سماح عبد المنعم السلاوي، الجاليات الأجنبية في مصر المملوكية، رسالة ماجستير، جامعة الزقازيق، ٢٠٠٣م، ص ١١٣.

jama[١٨] بتمويل من ملك البرتغال دوم مانويل Dom Maneol [١٩] وذلك عام ٩٠٣هـ (١٤٩٨م)[٢٠]. ومن هنا فقد طُوِّقت دولة المماليك من الجنوب، وعُطِّلت التجارة بشكل غير مسبوق[٢١]. وفي العام التالي قام فارتيما برحلته، التي تُعد الرحلة البرية الموازية لرحلة فاسكو داجاما البحرية[٢٢].

وفيما يتعلق بالأوضاع السياسية إبان رحلة بتس فقد جاءت رحلته في الربع الأخير من القرن السابع عشر الميلادي، في وقت كانت فيه الجزائر خاضعة لحكم الدايات التابعيين اسميًّا للسلطان العثماني منذ قبول خير

---

(١٨) **فاسكو داجاما:** هو قائد بحري كلفته البرتغال باستكشاف الطريق إلى الهند، بعد النجاح في الوصول لرأس الرجاء الصالح، وقد استعان فاسكو بربان مسلم حصل اختلاف بين الباحثين حول هويته، وتمكن من الوصول للهند وعاد إلى بلاده عام ١٤٩٩م. انظر: يوميا فاسكو داجاما، مقدمة الترجمة، ص ص ٩- ١٧، عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوربي الحديث، ص ٤٧-٤٨؛ شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرازق، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ب.ت، ص ٧٠.

(١٩) **مانويل الأول من البرتغال:** هو الملك الرابع عشر للبرتغال .وتُوفي في لشبونة في 13 ديسمبر .1521 دعم حملات الاستكشاف البرتغالية في المحيط الأطلسي .وقد تم اكتشاف البرازيل وضمها إلى مملكته في عصره كما أن فاسكو دا جاما قام بتأمين طريق التجارة إلى الهند وقام ألفونسو دي البوكيرك بالسيطرة على المحيط الهندي وبحر العرب وخليج عمان وجميع الموانئ في المنطقة مما عزز دور الإمبراطورية البرتغالية. عنه انظر:

Manuel I in: Encyclopedia Britannica online:

http://www.britannica.com/EBchecked/topic/363107/Manuel-I

(٢٠) يوميات فاسكو داجاما، وتقرير رحلة دوز سانتوس، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م.

(٢١) حول الآثار المترتبة على الوصول البرتغالي للهند انظر: هايد، تاريخ التجارة، ج٤، ص ص ١٠-٤٥؛ فائز على بخيت، المماليك الجراكسة في مواجهة الحصار الصليبي على مصر، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، العدد ١٣ ١٣٤٣هـ - ٢٠١٣م،

(٢٢) رحلات فارتيما، مقدمة المترجم، ص ٩.

الدين باربا‌روسا[٢٣]، للسلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م)[٢٤] حاميًا ووليًّا للأمر عام ١٥١٨م[٢٥]، أما مصر والحجاز فكانتا خاضعتين بشكل مباشر لسلاطين آل عثمان، وكان على حكم مصر باشا يوليه السلطان، أما مكة والمدينة فكانتا تحكمان من قِبَلِ الأشراف المنحدرين من الأسرة النبوية، ويدينون بالولاء للسلطان العثماني منذ سقوط دولة سلاطين المماليك[٢٦].

تعريف بالرحَّالتين:

يُعد فارتيما أول أوربي يتنكر في ثوب مسلم ويصل إلى الحجاز[٢٧]؛ ليتجسس على العالم الإسلامي ويستطلع أخباره، وبالرغم من ذلك

---

(٢٣) **خير الدين بارباروسا:** ولد عام (١٤٧٢م) بجزيرة لسبوس من جزر اليونان اشتغل مع أسرته بالتجارة البحرية بداية حياته ثم تمكن مع أخيه عروج من الحصول على قاعدة ميناء حلق الوادي بتونس عام ١٥٠٤م لاستغلاله في مهاجمة فرسان القديس يوحنا في مالطة، وتمكن من طرد الأسبان من ساحل الجزائر وأعلانا الولاء للسطان سليم الأول العثماني وانفرد بحكم الجزائر بعد استشهاد أخيه عروج عام ١٥١٨م وظل يعمل بالجهاد البحري حتى توفي في استنبول عام ١٥٤٦م. عنه انظر: بسام العسلي، خير الدين بربروس والجهاد في البحر ١٤٧٠-١٥٤٧م، دار النفائس بيروت، ب.ت.

(٢٤) عن **السلطان سليم الأول** انظر: إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨، ص ٨٠-٨٧؛ عز تلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٥٦-٥٩.

(٢٥) – مذكرات خير الدين بارباروسا، ترجمة د.محمد دراج، شركة الأصالة، الجزائر، ٢٠١٠م، ص ٩٦؛ مؤيد محمود المشهداني، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني ١٥١٨-١٨٣٠م، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تكريت، مجلد ٥، العدد ١٦، ٢٠١٣م، ص ٤١٥.

(٢٦) انظر: أحمد بن زيني دحلان، تاريخ أشراف الحجاز، تحقيق محمد أمين توفيق، دار الساقي بيروت، ١٩٩٣، ص ١٦، ١٧.

(27) Peters (F. E), The Hajj: The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy Places, Princeton University, 1994, p 83.

فالمعلومات عنه قليلة ونادرة[٢٨]، ومما عُلم عنه أنه رحَّالة إيطالي، قام برحلة من أوربا إلى الشرق في القرن السادس عشر، وبالرغم من إيطالية فارتيما، وعظم ما دوَّنه في رحلته من فائدة، فإنه قُوبل بالتجاهل حتىٰ من بني جلدته الإيطاليين. وقد برَّر المؤرِّخ الإيطالي فانتوزيGaspare Fantuzzi [٢٩] هذا التجاهل بانقطاع الصلة بين فارتيما ووطنه الأم إيطاليا، وارتباطه بملك البرتغال الذي قام بتمويل رحلته الطويلة إلى الشرق، ومن هنا اعتقد عدد من الباحثين أن فارتيما برتغالي، وهناك من قال بأنه أسباني من أصول إيطالية. ومما أجمع عليه الباحثون حول فاتيما أنه وُلد في بولونيا بإيطاليا، وكان والده طبيبًا، وفي تاريخ غير معلوم تزوج فارتيما وأنجب عددًا من الأولاد، لكن لا نعلم بمن تزوج ولا من أولاده، ثم رحل من بولونيا إلى البندقية ومنها للبرتغال. ويرىٰ بيرسي بادجر George Persy Badger [٣٠] أنه كان عسكريًّا، وتبرير ذلك دقة وصفه لأدوات الحرب التي قابلها في رحلته [٣١]. وقد خرج فارتيما في رحلته بتمويل من ملك البرتغال، ومن ثم

---

(28) The Travels of Ludovico di Varthema, trans. by J. W. Jones, London, 1863, intro, p. XVII.

(٢٩) جسبيرو فانتوزي مؤرخ إيطالي عاش بين عامَي ١٤٦٥و ١٥٣٦م عنه انظر:

Warren (Jeremy), Gaspare Fantuzzi: A Patron of Sculpture in Renaissance Bologna, *The Burlington Magazine*, Vol. 149, No. 1257, Sculpture (Dec., 2007), pp. 831-835

(٣٠) بيرسي بادجر: هو مبشِّر ومستشرق إنجليزي، عاش بين عامَي ١٨١٥م و ١٨٨٨م عمل مندوبا للكنيسة الإنجليزية في العراق من قِبل رئيس أساقفة كانتربري ١٨٤٢م ولمدة ثلاث سنوات ثم تنقَّل بين البلدان العربية والإسلامية لأغراض مرتبطة بالتبشير والدبلوماسية. عنه انظر:

Roper (Geoffreg), George Persy Badger, *in Bulletin (British Society for Middle Eastern Studies,* Vol. 11, No. 2 (1984), pp. 140-155

(٣١) رحلات فارتيما، مقدمة المترجم ١٠-١٧، وأيضًا انظر Peters, The Hajj, p.83.

لم يكن من المستغرب أن يقدِّم نائب الملك البرتغالي لفارتيما حين وصل الهند براءةَ الامتياز والفروسية بجانب ضمِّهِ للجيش البرتغالي هناك(٣٢)، حيث عاد إلى المسيحية التي أخفاها طويلًا في ثوب الحاج يونس المصري ثم العجمي، وقاتل فارتيما بالفعل في صفوف الجيش البرتغالي في معركة كانانور Cananor عام ١٥٠٦م قرب كالكتا بالهند(٣٣).

وفيما يتعلق بجوزيف بتس فهو أول إنجليزي زار مكة في التاريخ، بجانب كونه أول رحَّالة أوربي يصف طريق الحج المغربي بدءًا من بلاد المغرب مرورًا بمصر، بجانب كونه أصغر الرحَّالة سنًّا، حيث قام بهذه الرحلة وهو صبي، حيث غادر إنجلترا عام ١٠٨٩هـ (١٦٧٨م) في الخامسة عشرة من عمره، وعمل بحَّارًا، في وقت اشتد فيه الصراع بين المسلمين والأوربيين في البحر المتوسط، وقد أدى هذا الصراع لوقوع بتس أسيرًا في يد أحد البحَّارة الجزائريين فاتخذه عبدًا رقيقًا، وعاش في كنفه واعتنق الإسلام في الظاهر- بضغط من سيِّده - وذهب معه في رحلة حج إلى مكة، وبعد رحلة الحج منحهُ سيدُه صك الحرية. وقد بقي بتس في جوار سيده الجزائري خمسة عشر عامًا قبل أن يفكر في الهرب والعودة إلى بلاده. وقد مكنت بتس هذه الفترة الطويلة من الإلمام بالكثير والكثير عن المسلمين وأحوالهم، كما ألمَّ بجانب لغته الإنجليزية باللغتين العربية والتركية. بقي بتس في الجزائر حتى رحل إلى الأستانة مع بعض السفن الإنجليزية، وبعد فترة رحل من تركيا بمعونة أحد التجار الإنجليز، ثم سافر إلى جنوة، ومنها تنقَّل بين عددٍ من بلدان أوربا، حيث رحّب به في ألمانيا وهولندا، وعاد أخيرًا إلى موطنه الأصلي إنجلترا التي واجهته بها الكثير من العقبات، فندم على عدم العودة

(٣٢) محمد السرياني، ومعراج مراز، مكة المكرمة في عيون غير المسلمين، ص ١٦.

(33) Scott (W. H), University The Mediterranean Connection, Philippine Studies, Vol. 37, No. 2 (Second Quarter 1989),, p.135.

إلى الجزائر والبقاء على دين الإسلام. غير أن أحواله تحسنت بعد ما عثر على والده، فاستقرت أحواله، وازداد علمًا وثقافة، وألَّف كتابًا بعنوان: "حقائق عن الإسلام"(٣٤).

دوافع الرحلة:

تعددت الدوافع لدى الأوربيين للاهتمام بمكة المكرمة والمدينة المنورة، ومن أهم هذه الدوافع: الأغراض التبشيرية، أو البحث العلمي، أو المجازفة، أو التجسس والأغراض السياسية وهو الغالب(٣٥)، ومنهم من ساقته الظروف رغمًا عنه للوصول إلى مكة.

وقد خرج فارتيما من بلاده للقيام بهذه الرحلة خلال الفترة الممتدة بين عامَي ٩٠٨- ٩١٤هـ (١٥٠٣ - ١٥٠٨م)(٣٦)، وذكر سبب خروجه في هذه الرحلة وهو: "أنه لما كانت كل البلدان مطروقة على نحو كبير بالنسبة لشعبنا، فقد فكّرت في أنه يجب عليَّ أن أرى البلاد التي لم يرها أهل البندقية،

---

(٣٤) رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، مقدمة المترجم، ص ٧-١١.

Pailin (A.D.), British views on religion and religions in the age of William and Mary, in Method & Theory in the Study of Religion, Vol. 6, No. 4 (1994), p369-370; Michael (W.), One thousand roads to Mecca: ten centuries of travelers writing about the Muslim pilgrimage, new York, 1997, p 102-103.

(٣٥) محمد السرياني، ومعراج مراز، مكة المكرمة في عيون غير المسلمين، ص ٤.

(٣٦) رحلات فارتيما، ص ٩

The Travels of Ludovico di Varthema, trans by J. W. Jones, London, 1863, p. 6

أو لم يترددوا عليها كثيرًا"[٣٧]. هذا ما ذكره لكن لم يصرح أن رحلته كانت بغرض التجسس على بلاد المسلمين وكشف ثرواتها وعوراتها، ويرى الدكتور عبد الرحمن الشيخ مترجم الرحلة إلى العربية أن رحلة فارتيما المقابل البري لرحلة فاسكو دي جاما، كما يرى أن مهمة فارتيما كانت أصعب بكثير من مهمة دي جاما، ومصدر هذه الصعوبة أن دي جاما كانت مهمته الوصول إلى لهند عن طريق بحر لا يسيطر المسلمون على قطاع كبير منه، أمَّا مهمة فارتيما فكانت اختراق أرض المسلمين، ووصف طبيعتها، وطرق المواصلات بها، ومصادر الثروة، وطرق الدفاع وأعداد الجيوش، ومن هنا فقد أمعن فرتيما في التخفي؛ فظهر في الحجاز وفارس في صورة الحج يونس المصري أو يونس المملوك المصري، وفي الهند قدَّم نفسه بأنه الحج يونس العجمي[٣٨].

وقد جاء نجاح محاولة فارتيما حدثًا فذًّا في التاريخ الأوربي، وكان لها تقديرها في فترة ما عُرف بعصر النهضة الأوربية، وخير دليل على مكانتها وتأثيرها كثرة عدد الطبعات والترجمات التي حظيت بها هذه الرحلة[٣٩].

ولم تكن محاولة فارتيما للوصول لمكة والمدينة الأولى من نوعها بالنسبة

---

(٣٧) رحلات فارتيما، ص ٢٣.

(٣٨) رحلات فارتيما، ص ١٠، ١١.

(٣٩) حول مكانة رحلة فارتيما وطبعات انظر:

The Travels of Ludovico di Varthema, intro pp.II-XVI ; Beckingham (C.F.), SOME EARLY EUROPEAN TRAVELLERS IN ARABIA, in Ninth SEMINAR FOR ARABIAN STUDIES held at The School of Oriental & African Studies and the Institute of Archaeology, London on 7th-9th July, 1975 (1976), p 3; King (R.), The Pilgrimage to Mecca: Some Geographical and Historical Aspects, Erdkunde, Bd. 26, H. 1 (Mar., 1972), p65.

للأوربيين، بل هناك كثير من المحاولات الفاشلة، ومن أشهرها مغامرة الأمير الصليبي رينو دي شاتيون Renquld de Chqttillion أو أرناط(٤٠) كما أطلقت عليه المصادر العربية، وذلك عام ٥٧٧هـ (١١٨٢م) حين اتجه للقيام بحملة عسكرية لغزو المدينة المنورة ونقل جسد النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أوربا ليتحول حج المسلمين من مكة إلى أوربا، معتقدًا أن الحج الإسلامي يتوجه إلى المدينة المنورة حيث دفن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا يعبِّر عن قصور فكرة الأوربيين عن الأماكن المقدسة الإسلامية بالرغم من بقائهم في الشام ثمانية عقود قبل هذا الحدث، ومنهم من أتقن العربية، وعلم الكثير عن العرب، ومن بينهم رينو نفسه(٤١)، ومهما يكن من أمرٍ فلم تُكلل حملة أرناط بالنجاح بسبب يقظة السلطان صلاح الدين الأيوبي حاكم مصر والشام آنذاك، الذي أمر بإرسال حملة بحرية من مصر عبر البحر

---

(٤٠) **أرناط:** هو أمير أنطاكية خلال المرحلة الواقعة بين عامَي ١١٥٣، ١١٦٣م، فيما بعد صار سيد إقطاعية شرقي الأردن والخليل فيما بين عامَي ١١٧٧- ١١٨٧م وقد قتله صلاح الدين بيده بعد نصر حطين جزاءً لتجرُّئه على مقدسات المسلمين، عنه انظر.

Ernoul, Chronique d' Ernoul et Bernard le Tresorier ,ed.Mas Laterie ,Paris1971, pp.69-70.

محمود رزق محمود: العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى معركة حطين ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٧٣م؛ أميرة مصطفى يوسف: أرناط حاكم أنطاكية والكرك من ١١٥٣- ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة كلية التربية للبنات بجدة عام ١٩٨٤م.

(٤١) حول إلمام بعض الفرنجة في الشام باللغة العربية انظر:

Attiya (H. M), Knowledge of Arabic in the Crusader States in the twelfth and thirteen centuries, in Journal of Medieval history, vol. 25:3, 1999, pp. 203-213.

الأحمر أدركت قوات أرناط وسحقتها، وفرَّ القائد الصليبي، ونجا بنفسه وقُتل جلُّ جنوده، وسيق بعضهم ونحر يوم النحر في موسم الحج حتى يكون ذلك رادعًا لأي أوربي يفكر في هذا السلوك مستقبلًا(٤٢).

وهناك ادعاء بوصول مندوبين من قِبل دوق ميلانو Raimondo di Soncino وصلوا إلى مكة المكرمة عام ٩٠٢هـ (١٤٩٧م) وأجروا مباحثات مع تجَّار التوابل هناك، غير أن هذا الكلام من الصعب قبوله - كما أكد الدارسون الأوربيون- حيث لا يوجد دليل صادق يؤكِّد حدوث ذلك، في وقت كان وصول الأجانب فيه إلى مكة صعبًا أو مستحيلاً(٤٣).

وإذا كان فارتيما قد جاء إلى مكة بناء على تخطيط مسبق بغرض التجسس كما بدا لنا، فالأمر كان مختلفًا مع بتس الذي ساقه القدر سوقًا للوصول لأطهر بقاع الأرض. ولم يحدد جوزيف بتس تاريخًا محددًا لرحلته للحج، ويرجح Beckingham أن ذلك كان خلال الشهور الأربعة الأخيرة من عام ١٠٩٦ه، الموافقة للفترة الممتدة بين أغسطس ونوفمبر عام ١٦٨٥م، وكان ذلك في صحبة سيِّدهِ(٤٤).

ولم يذهب بتس إلى الحج باختياره، لكنه شارك فيه مدفوعًا بحرص سيِّدهِ عليه -على ذكر بتس-، فكما مارس عليه ضغوطًا حتى اعتنق الإسلام،

---

(٤٢) حول محاولة أرناط الفاشلة لغزو المدينة المنورة انظر: محمد مؤنس عوض، صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة، دار عين للبحوث، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٣٢-١٣٧
Beckingham (C.F.), SOME EARLY EUROPEAN TRAVELLERS IN ARABIA, p.1-2

(43) Beckingham (C.F.), Some Early Travels in Arabia, ,p 11.

(44) Beckingham (C.F), The date of Pittis's Pilgrimage to Mecca, in Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, No. 3/4 (Oct.1950), pp. 112-113

فقد صحبه -علىٰ غير اختيار- في رحلة الحج اعتقادًا منه أنه يحسن إليه، وكما قبل بتس الإسلام في الظاهر، فلم يكن له أن يرفض رحلة الحج وإلا أكد فساد عقيدته وهو ما لا يُحمد عقباه، ويبدو أن السيد الجزائري قد خُدع في بتس، الذي يبدو أنه قد أتقن التظاهر بالإسلام، وعليه فقد أعتقه بعد عودته من رحلة الحج بفترة قصيرة(٤٥). ويرىٰ البعض أن "رحلته تمثل انطباعات رجل إنجليزي مليء بالتحامل، وعدم الثقة في الأجانب، وربما يكون ذلك لسوء المعاملة التي لقيها من أسياده المتعددين في أثناء عبوديته"(٤٦).

خط سير الرحلة:

بدأت رحلة فارتيما نحو مكة كما حدد في ٨ إبريل ١٥٠٣م (٤٧) وهو الموافق ليوم ١٠ شوال ٩٠٨هـ، وهو توقيت يقارب من توقيت خروج ابن بطوطة (في الوقت نفسه من السنة) حيث خرج من دمشق في مستهل شوال من عام٧٢٦هـ(٤٨) الموافق ٣١ أغسطس ١٣٢٦م أي أن قافلة الحج الشامي التي خرج فيها فارتيما قد تأخرت بمقدار عشرة أيام عن رحلة حج ابن بطوطة، لكنها تتوافق مع نفس يوم خروج رحلة ابن رشيد الفهري الذي غادر دمشق مع قافلة الحج في ١٠ شوال ٦٨٤هـ الموافق ٩ ديسمبر ١٢٨٥م(٤٩).

---

(٤٥) رحلة جوزيف بتس، المقدمة ص ١٠.

(٤٦) محمد السرياني، ومعراج مراز، مكة المكرمة في عيون غير المسلمين، ص ٣٠.

(٤٧) رحلات فارتيما، ص ٣٦.

(٤٨) ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي ت ٧٩٩هـ / ١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة، ج١، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٢٢هـ.، ج١، ص ٧٩.

(٤٩) السبتي (محمد بن عمر بن رشيد الفهري ت ٧٢١هـ / ١٣٢١م): ملء العيبة بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى مكة وطيبة، تحقيق د. محمد الحبيب بن الخواجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ١؛

يقرر مؤلِّف كتاب الحج أن خط سير فارتيما في رحلته إلى مكة كان متميزًا بالنسبة لغيره من الأوربيين، حيث إنه أول أوربي وصل مكة عن طريق الحج الشامي البري، وقد استمر في هذا التفرد حتى كرره الرحَّالة بوركهارت(٥٠)، أما من قام بالرحلة غيرهما فقد سلك طريق مصر البحر الأحمر ينبع (٥١). خرج فارتيما من البندقية في إحدى سفن التجار متوجهًا نحو الإسكندرية، ومنها وصل القاهرة ثم عاد الإسكندرية(٥٢). من الإسكندرية نزل فارتيما إحدى السفن منطلقًا نحو بيروت، ومنها أخذ يتنقل بين المدن الشامية مثل طرابلس وحماة ثم وصل دمشق، وفيها أخذ يخطط لطريقة التخفي والتنكر في ثوب حاج حتى يتمكن من الالتحاق بقافلة الحج الشامي التي تنطلق من دمشق قبل الحج بفترة كافية(٥٣).

ويبدو أن فارتيما قد أتقن العربية قبل ذلك(٥٤) وغالبًا في بلاده، حيث كانت هناك موجة عالية لتعلم اللغة العربية حسبما أوصى به البابا‌وات

---

(٥٠) وُلد سنة 1784 م من أب سويسري وأم إنجليزية، والتحق بوركهارد في الجمعية الملكية المعنية بالاكتشافات الجغرافية في أفريقيا.

وعلى الرغم من أن أغلب نشاطات الجمعية كانت تدرس مجاهل أفريقيا إلا أن الدين الإسلامي كان مثيرًا لبركهارت وخاصة مع ظهور الدولة السعودية سنة ١٧٤٥م، فقرر بركهارت ترك الجمعية ودراسة اللغة العربية في جامعة كامبردج .وأعفى لحيته ليرافق الحجاج الأفارقة إلى الشرق متنكرًا بشخصية رجل مسلم ألباني اسمه الحاج إبراهيم، ووصل إلى حلب وتعمق أكثر باللغة العربية واتصل بقبائل عنزة في بلاد الشام. رحل إلى مصر سنة ١٨١٢م واتصل بمحمد علي باشا الذي كان يتقلد ولاية مصر للتو، ومكلف بحرب آل سعود، ورافقه بركهارت لغزو جزيرة العرب، ومكث بين مكة والمدينة من سنة ١٨١٤م إلى سنة ١٨١٦م. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٨، بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، ص ٢٦٤.

(51) Peter, The hajj, p. 83.

(٥٢) رحلات فارتيما، ص ٢٣.

(٥٣) رحلات فارتيما، ص ٢٣.

(٥٤) رحلات فارتيما، ص ص ٢٤-٤٣.

المبشِّرون باستخدام العقل والحُجة في مخاطبة المسلمين؛ بغرض تحويل المسلمين للمسيحية، ووسيلتهم في ذلك تعلم العربية، وفي مقدمة من تبنىٰ هذا المسعىٰ رامون لول الراهب الأسباني(٥٥)، بعد أن فشلت الوسائل العسكرية في السيطرة علىٰ الساحل الشامي بفقد عكا عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م) وباقي الجيوب الصغيرة بعد صراع مرير استمر قرنين من الزمان(٥٦).

بعد استقرار فارتيما في دمشق لفترة تمكن من جمع معلومات حول قافلة الحج الشامي التي تنطلق كل عام من دمشق، وهناك تخفَّىٰ في زي الحج يونس المصري، وقام برشوة أمير الركب المملوكي لرحلة الحج حتىٰ ألبسه زي المماليك، ومنحه جوادًا حتىٰ لا يتعرف عليه أحد، وخرج معهم من دمشق إلىٰ منطقة المزيريب التي تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام(٥٧). ومنها إلىٰ منطقة سدوم والبحر الميت بعدها غاصوا في الصحراء حتىٰ وصلوا إلىٰ المدينة المنورة ومنها إلىٰ مكة المكرمة (٥٨). وهذا الطريق يتفق إلىٰ حد كبير مع

---

(٥٥) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٤٦٤-٤٦٥؛ فكتور الكك، العلاقات الثقافية بين المسلمين والفرنج في العصور الوسطىٰ، مجلة التفاهم، العدد ٤٢، وزارة الأوقاف العمانية، مسقط، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص ٣٢٩.

(٥٦) عن ذلك انظر: محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين فتح عكا، ص ٣٠٥-٣٤٠.

(٥٧) **المزيريب:** هي بلدة في أقصىٰ جنوب سوريا وهي تعد جزءًا إداريًّا من محافظة درعا وتقع شمال غرب مدينة درعا علىٰ مقربة من الحدود السورية الأردنية .من بين البلدات المتاخمة، الشيخ سعد و نوىٰ إلىٰ الشمال، داعل و طفس و الشيخ مسكين إلىٰ الشمال الشرقي و اليادودة إلىٰ الجنوب الشرقي. عنها انظر: المزيريب، ويكيبيديا الموسوعة الحرة علىٰ الانترنت:

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B2%D9%8A%D8%B1%D9%8A%D8%A8

(٥٨) رحلات فارتيما، ص ص ٣٥-٥٠.

طريق الحج الشامي [٥٩].

والطريق الذي سلكه فارتيما هو نفسه تقريبًا الذي سلكه ابن بطوطة في رحلته للحج عام ٧٢٦هـ(١٣٢٦م)، غير أن ابن بطوطة كان أدق وصفًا وأكثر تفصيلًا من فارتيما، كما كان على علم بأهم المنازل التي نزل بها خاصة ما يرتبط بها بالسيرة النبوية مثل بصرى وتبوك[٦٠].

هناك سؤال يطرح نفسه حول سبب رحيل فارتيما إلى دمشق ليلتحق بركب الحج الشامي، ولم يبق في القاهرة ليشارك ضمن ركب الحج المصري وهو بالطبع أكبر حجمًا وأعظم تأمينًا وأوفر في المؤن والعتاد، كما أنه كان سوف يوفر عليه عناء السفر إلى بلاد الشام؟ وهناك احتمال أول وهو رغبته في توفير معلومات أكثر عن مدن بلاد الشام، وربما نتخذ من اقتضاب روايته عن القاهرة والإسكندرية في حين أخذ في بسط المعلومات عن بيروت ودمشق بشكل أوسع، وكلما توغل بعيدًا عن ساحل البحر أفاض في الوصف، وذكر هو نفسه أن ما شاهده في القاهرة لا يختلف كثيرًا عما يعلمه قبل وصوله إلى مصر إلا في قليل من التفاصيل، فالإسكندرية على سبيل

---

(٥٩) **طريق الحج الشامي:** يمر طريق الحج الشامي البري بثلاث دول في الوقت الحالي هي سورية والأردن والسعودية. في القسم السوري تسير القافلة من دمشق للكسوة ومنها إلي حوران وبصري والمزيريب ودرعا. في القسم الأردني تسير القوافل خان المفرق وخان الزبيب ثم القطرانة ثم إلى خان الزبيب والبلقاء والحسا وعنيزة ومعان وبطن الغول والمدورة، وبها ينتهي القسم الأردني. أما عن القسم السعودي فيبدأ من حالة عمار ثم ذات الحاج وبعدها تبوك ثم الأخضر والأقراع والحجر ووادي القرى ومنها للمدينة المنورة. حول تفاصيل هذا الطريق راجع: حياة بنت عبد الله الكلابي، النقوش الإسلامية على طريق الحج الشامي بشمال غرب المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ص ص ١٧-٣٠.

(٦٠) رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ٧٩، حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته تحقيق دراسة تحليل، دار المعارف، القاهرة، ب. ت، ٥٦-٦١

المثال ذكر عنها عدة أسطر ختمها بعبارة :"سرعان ما غادرت الإسكندرية فهي معروفة للجميع"(٦١)، وعن القاهرة يقول :"لم أذكر شيئًا عن ثراء القاهرة وجمالها، وعن كبرياء المماليك، فكل أولئك معروفة لأهل بلدي"(٦٢). وبجانب ذلك لم يكن من الحكمة الانضمام لقافلة الحج المصري، خاصة أن هذه الفترة كانت فترة شك في الأجانب وأشباههم في ظل تصاعد الصراع المملوكي البرتغالي في المحيط الهندي عقب الدوران حول إفريقية، وانتشار أخبار عن تطلع البرتغاليين لغزو الحجاز، مع زيادة احتمالية اندساس الجواسيس الأوربيين في القوافل لكشف عورات بلاد المسلمين، وبالطبع إجراءات الأمن تكون في درجتها القصوىٰ في العاصمة، وهو ما يقلل من إمكانية اندساسه أو تخفيه في وسط الحجاج، أما في دمشق فكان الأمر أيسر كما بدا لنا باستخدام المال في وقت كثرت شكايات المماليك من تأخر أعطياتهم، ومن ثم كان من السهل أن يسيل لعاب المماليك أمام إغراءات المال، وهو ما سهل من مهمة فارتيما ليتخفَّىٰ في زي الحاج، ويسمِّىٰ نفسه يونس المصري(٦٣).

ويبدو أن محاولات الوصول إلىٰ الحرمين الشريفين من قبل الجواسيس الأوربيين قد صارت معلومة، ومن ثم أخذ حكَّام مكة حذرهم من هذا الأمر، وصاروا يعتنون عناية خاصة بتفحص الحجاج حتىٰ تمكَّن حاكم مكة الشريف بركات عام ٩١٦هـ (١٥١٠م) من القبض علىٰ ثلاثة أشخاص اشتبه بهم، وظهر أنهم جواسيس من قِبل إحدىٰ الدول الأوربية فوضعهم في الحديد وأرسلهم إلىٰ السلطان في القاهرة(٦٤). وقد انتشرت في الأدبيات

(٦١) رحلات فارتيما، ص ٢٣.

(٦٢) رحلات فارتيما، ص ٢٤.

(٦٣) رحلات فارتيما، ص ٣٥.

(٦٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٤٥.

العربية فكرة تنكر الأوربيين في ثوب مماليك وتجار وحتى فقهاء، وبمراجعة الرواية الشعبية "سيرة الظاهر بيبرس" يمكن متابعة هذه الظاهرة على نطاق واسع(٦٥).

وقد حدد فارتيما مدى الرحلة الزمني من المزيريب حتى مكة بأنه يستغرق أربعين يومًا وأربعين نهارًا، وأن القافلة من ٣٥٠٠٠ جمل، و٤٠٠٠٠ حاج و٦٠ من الحراس المماليك كان هو شخصيًّا من بينهم(٦٦)، وقد تركت هذه الرحلة كثيرًا من الانطباعات على فارتيما، أهمها:

حسن تنظيم وإدارة قافلة الحج، حيث لحظ فارتيما صرامة القائد المملوكي لحرس القافلة، فهو أدرى بالطريق وطريقة تأمين القافلة وكيفية مواجهة الصعاب إذا ما واجهتهم، كما لحظ فارتيما وجود لغة إشارة يستخدمها قائد القافلة، وأن جميع من في القافلة لديهم قدرة على تمييز هذه الإشارات وتنفيذها حال صدورها. لحظ أيضًا امتثال كل مَنْ بالقافلة لأوامره من حيث نظام القافلة، وأخيرًا معاونة القادرين على القتال من الحجاج لحرس القافلة في حالات الضرورة(٦٧).

وفيما يتعلق بمخاطر الطريق، فقد ذكر أن العشائر البدوية غير المنظمة قد ألفت مهاجمة قوافل الحج؛ بغرض الحصول منها على نوع من الأتاوات بزعم أن المناطق التي يقيمون فيها أملاكهم الخاصة، ومن يمر بها يجب عليه أن يدفع مقابل ذلك، وإلا تعرضت قافلته للنهب وخاصة إذا كانت قليلة التأمين(٦٨)، ومما لحظه فارتيما على الجماعات المهاجمة أنه بالرغم من كثرتها

---

(٦٥) سيرة الظاهر بيبرس، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م، متفرق.

(٦٦) رحلات فارتيما ص ٣٦، وانظر أيضًا: Peter, The hajj, p. 83.

(٦٧) رحلات فارتيما، ص ٣٦-٤٠.

(68) Petter, The Hajj, p. 159.

فإنها غير منظمة، وفقيرة التسليح وبالتالي كانت ضحاياهم من الهجوم على القوافل خاصة جيدة التسليح كانت كبيرة جدًّا، ففي معركة نشبت بين قافلة فارتيما المحمية ب٦٠ مملوكًا، عشرون أمام وعشرون خلف وعشرون لحماية القافلة من الجانبين لم يخسر الحجاج أكثر من رجل وامرأة، بينما فقد البدو ١٦٠٠ قتيل[٦٩] وهذا لا يخلو من مبالغة، كما نشب قتال بين حرس القافلة والبدو بين المدينة ومكة المكرمة، وتغلَّب القائمون على حراسة القافلة على المهاجمين بسهولة[٧٠].

ومن أهم ملحوظات فارتيما ما ذكره حول مصادر المياه بالطريق التي تنوعت بين الحفر في التربة الرملية أو الطينية إذا صادفتهم، أو الحصول على الماء من أحواض المياه التي أقيمت بغرض الصدقة من المحسنين في هذه البقاع القاحلة[٧١]، وقد وصف ابن بطوطة[٧٢] شدة جفاف هذه البقاع بقوله :""داخلها مفقود، وخارجها مولود"، ناهيك عن محاولات القبائل القريبة من الآبار والعيون ابتزاز الحجاج، وهو ما كان يفتح بابًا للتشاحن مع الحجاج وصل خلال رحلة فارتيما إلى الاقتتال [٧٣].

أما عن مسار رحلة بتس، فقد حرص على تحديد مسارات الحج المختلفة من شتَّى بقاع المعمورة المعروفة في عصره وذكر أنها أربعة قوافل: قافلة الحج المغربي، وقافلة الحج المصري، وقافلة الحج الشامي، وأخيرًا قافلة الحج الهندي، وبالطبع سار بتس مع قافلة الحج المغربي وفصَّل مسارها

(٦٩) رحلات فارتيما، ص ٣٩-٤٠.

(٧٠) رحلات فارتيما، ص ص ٤٩-٥٠.

(٧١) رحلات فارتيما، ص ص ٣٧-٣٩

(٧٢) رحلة ابن بطوطة، ص ٧٩-٨٠؛ محمد بن حسن الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، ص ٢٢١.

(٧٣) رحلات فارتيما، ص ٣٩.

كالتالي: تنطلق من مراكش في المغرب وتسير برًّا بحذاء الساحل الجنوبي للبحر المتوسط حتى تصل إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة ثم القلزم (السويس) ومن هناك يمكن ركوب البحر حتى جدة(٧٤) ومنها إلى مكة. ويمكن أن يحدث تغيير طفيف في المسار من المغرب إلى مصر بجعل الرحلة بحرية حيث إنها أقل عناء من الرحلة البرية وهو ما جرى مع بتس؛ حيث ركب مع سيِّده في سفينة لتنقلهم إلى مصر مع شدة الحذر خوفًا من القراصنة الأوربيين، وإمعانًا في التخفِّي رفع ربان السفينة الأعلام الفرنسية ذات الصلبان. وقد أكد بتس أن موظفي الإدارة في الجزائر لم يكن من الممكن لهم المشاركة في الحج دون إذن من الداي (لقب حاكم الجزائر) وإلا حُرموا من مرتب عام كامل(٧٥).

ومما لحظه بتس كثرة المؤن التي تحمل مع قافلة الحج، حيث إنها تكفي لمدة أربعة أشهر لزوم طريق الذهاب والعودة. أيضًا أوضح أن كل سفينة من سفن قافلة الحج البحري كانت تحصل على ما يكفيها من الماء الصالح للشرب من السويس عن طريق الشراء، حيث يقوم كل راكب على السفينة بشراء كمية من الماء تكفيه بشكل شخصي لا يسأل عنه ربان السفينة. كما لحظ بتس اضطراب البحر عند المرور بموضع عبور بنى إسرائيل في خليج السويس بالقرب من الطور. وأكد بتس أن الإبحار في البحر الأحمر محفوف بالمخاطر خاصة مع الاقتراب من الساحل، حيث كان من الممكن أن تصطدم السفينة بإحدى الصخور غير المرئية وبالتالي كانت السفن تسير نهارًا وتقف ليلًا خشية الاصطدام بالصخور في ظلمات البحر(٧٦).

---

(٧٤) ذكر بتس أن جدة ه ميناء مكة وأن بينهما مسيرة أقل من يوم Wolf, One Thousands Roads to Mecca, p113.

(٧٥) رحلة جوزيف بتس، ص ص ٢١-٤١.

(٧٦) رحلة جوزيف بتس، ص ص ٤١-٤٣، انظر أيضًا: Peter, The hajj, p.83.

ومما صادفه بتس في رحلته البحرية أحد المقامات قرب شاطئ البحر ويعرف بمقام المرابط، وقد أكد أن هناك كثيرًا من المعتقدات الخرافية مرتبطة عند البحَّارة بهذا المقام، حيث كانوا عند الاقتراب من المقام يجمعون الصدقات حسب رغبة كل حاج ويضعونها في سفينة صغيرة يدفعونها لتصل إلى المقام، إذ كانوا يعتقدون أنها تصل إلى الشيخ المرابط في ضريحه، بينما أكَّد بتس أن معظم المال كان البحارة يستولون عليه تحت هذا الزعم، وما يصل إلى الضريح يكون أقل القليل. وأكد بتس أن لضريح المرابط حرمة فمن دخله وكان من أصحاب الجرائم لا يجرؤ طالبوه على اقتحام الضريح للقبض عليه مهما لبث بالداخل(٧٧). وبمراجعة كتب الحجاج المسلمين لم يوجد ما يؤيد ما رواه بتس عن مقام المرابط، غير أننا لا ننفي صدق بتس، فهذا الموضع لا يستحق أن يكذب فيه بل هو يروي ما شاهده وسمعه ليس أكثر، بخلاف حديثه عن عقائد المسلمين ومحاولاته اليائسة للتشكيك فيها كما سنرى، بجانب أن التصوف كان منتشرًا إلى حد كبير في العصر العثماني؛ ومن ثم كثرت المقامات في شتَّى بقاع السلطنة(٧٨).

أما عن جدة التي نزل في مينائها بحكم أنها بوابة مكة فلم يطل في وصفها، واكتفى بذكر أنها أقرب الموانئ إلى مكة،؟ وأنها غير مسوَّرة، وبها يستقبل الأدلاء الحجاج(٧٩).

ومن الجدير بالذكر أن الطريق التي سلكها بتس تكاد تتطابق مع

---

(٧٧) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٣.

Wolf, one thousand roads, p. 112.

(٧٨) عن التصوف في العصر العثماني انظر: توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، مطبعة الآداب، القاهرة، ١٩٤٦م.

(٧٩) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٤.

طريق رحلة القلصادي في القرن التاسع الهجري(٨٠)، غير أن معلومات بتس كانت أكثر تفصيلًا في وصف الطريق ونوادر ما صادفهم في الطريق.

مكة المكرمة:

- **وصف مكة:**

وصف فارتيما مكة بأنها ذات الشرف الباهر، وأنها مدينة رائعة الجمال، بناؤها منظَّم، ومنازلها جيدة مثل منازل إيطاليا، وسعر المنزل فيها يعادل ثلاثة أو أربعة آلاف من الدوكات(٨١). كما لم يكن يحيط مكة سور مثل القاهرة أو الإسكندرية، غير أن الجبال تقوم مقام الأسوار حيث تحيط بمكة من جميع الجهات(٨٢). وأن في جنوب مكة جبلين متقاربين كأنهما بوابة لمكة(٨٣). ويقترب وصف فارتيما من وصف ابن بطوطة(٨٤) الذي ذكر أن

---

(٨٠) خرج القلصادي من ميناء المناكب في جنوب الأندلس ومنه إلى وهران ثم تونس وجربة وطرابلس ومنها للإسكندرية ثم القاهرة برًّا ومنها للطور ثم ركبا السفن حتى ينبع ثم رابغ انظر: القلصادي (أبو الحسن علي الأندلسي ت ٨٩١هـ /١٤٨٦م)، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، تونس، ١٩٧٨، ص ١٢٩-١٣١، ١٤٧؛ سماح عبد المنعم السلاوي، طرق الحج المصري في القرن العاشر الهجري / القرن السادس عشر الميلادي، ضمن بحوث الندوة العالمية الثامنة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية (القرن العاشر الهجري)، الرياض، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص١٣.

(٨١) **الدوكة:** الاسم الذي أطلقه المؤرخون العثمانيون على فلورنسا، وقيل هو النقد الذهبي المضروب في البندقية قديمًا، وهي محرَّفة لكلمة دوكاتوه Ducat الإيطالية، وكان يزن بين عشرة إلى اثني عشر فرنكًا: سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ٢٠٠٠م، ص ١١٥.

(٨٢) رحلات فارتيما، ص ٥١.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p.81.

(٨٣) رحلات فارتيما، ص ٥١.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p.82

(٨٤) رحلة ابن بطوطة، ص ٩٥.

مكةَ مدينةٌ مستطيلة متصلة البنيان تحفُّ بها الجبال من كل الجهات وإن زاد عليه بذكر الجبال محيطة بمكة بأسمائها، كما سمىٰ مداخل مكة الثلاثة من الشمال باب المعلَّىٰ، ومن الغرب باب الزاهر، ومن الجنوب باب السفل.

وكان فارتيما ينظر لمكة من منظور الكاثوليكي المتعصب، ومن ثم فقد فسَّر جفاف البقاع المحيطة بمكة بأن ذلك نوعًا من غضب الرب علىٰ هذه البقعة، حيث لا ينبت بها زرع ولا شجر، كما تعاني المدينة من نقص الماء، وأكَّد أن الحصول علىٰ الماء فيها مكلف جدًّا(٨٥).

أما بالنسبة لوصف بتس لمكةَ، فقد ذكر أنها تقع في وادٍ غير ذي زرع، وتبعد عن ساحل البحر تقريبًا بيوم، والأقرب للدقة أنها تقع وسط تلال صغيرة كثيرة؛ لذا فهي لا تحتاج لبوابات أو أسوار، ومبانيها كما سبق أن ذكرت عادية جدًّا فهي غير مهيأة لاستقبال الوافدين. كما لم يفت بتس الوصف الطبوغرافي للمناطق المحيطة بمكة، فذكر أن التلال تحيط بمكة ولعدة أميال وهي صغيرة متقاربة، وقد ارتقيت بعض هذه التلال بالقرب من مكة المكرمة، بحيث كان في إمكاني رؤية مداها عدة أميال. وهذه التلال جميعًا من صخور حجرية تميل للسواد، وتبدو علىٰ البُعد كأنها أكوام قش، لكنها جميعًا نحو مكة، وبعض هذه التلال يبلغ محيط الواحد منها نصف ميل(٨٦).

---

(٨٥) رغم اشتراك ابن بطوطة مع فارتيما في الحديث عن جفاف مكة فإن ابن بطوطة كان له رأي مختلف عن الأمر قال فيه: "ومكة شرفها الله كما أخبر الله في كتابه العزيز حاكيًا عن نبيه الخليل بوادٍ غير ذي زرع، ولكن سبقت لها الدعوة المباركة فكل طرفة تجلب إليها، وثمرات كل شيء تجيء لها، ولقد أكلت بها الفواكه، العنب، والتين، والخوخ، والرطب، ما لا نظير له في الدنيا".

انظر: رحلة ابن بطوطة، ص ٩٥.

(٨٦) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٧.

Foster W. (Editor), The Red Sea, p. 25.

- **اقتصاد مكة:**

كان من الأهمية بمكان أن يركز الرحَّالة الأوربي على البُعد الاقتصادي نظرًا لاعتقاد الأوربيين اعتقادًا جازمًا بأن الثراء الذي تتمتع به البلاد الإسلامية سبب صمودها أمام الغزو الصليبي الفاشل في القرنين ١٢و ١٣(٨٧)، ومن هنا حرص كلٌّ من فارتيما وبتس على تتبع مصادر الثروة في مكة والمدينة، ناهيك عن الماء ومصادره.

تحدَّث فارتيما عن اقتصاد مكة قائلًا: "وأن ما تحتاجه المدينة يأتي من أماكن بعيدة مثل القاهرة من خلال البحر الأحمر وميناء جدة، وكذلك من بلاد اليمن، كما تصل البضائع مكة من الهند وأثيوبيا وفارس، ومن هنا فقد كثرت البضائع في مكة حتى توافد عليها عدد كبير من أناس جمعوا بين الرغبة في الحج والتجارة"(٨٨). وعدَّد فارتيما أنواع المتاجر التي ترد مكة ومن بينها كميات كبيرة من البهار ترد من الهند، بجانب كل الأنواع التي ترد من أثيوبيا والبنغال، وأيضًا كميات كبيرة من الأقمشة القطنية والحريرية وعبر مكة "تتم تجارة مرور كبيرة في المجوهرات والبهارات بأنواعها المختلفة، والقطن بكميات كبيرة والشمع والمواد العطرية"(٨٩)، وينتشر التجار داخل المسجد الحرام تحت عقود المسجد ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ تاجر من الرجال والنساء يبيعون مختلف أنواع العطور ومساحيق حفظ الأبدان (٩٠).

أما عن بتس، فقد ذكر أن ماء مكة وافر، إلا أن العشب فيها نادر فيما

---

(٨٧) سماح السلاوي، الجاليات الأجنبية في مصر، ص ١١٢.

(٨٨) رحلات فارتيما، ص ٥٢-٥٣.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p. 82.

(٨٩) رحلات فارتيما ص، ٥٣.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p. 82.

(٩٠) رحلات فارتيما، ص ٥٤.

خلا مواضع قليلة، وثمة أنواع مختلفة من الفاكهة الطيبة كالأعناب، والشمام، والبطيخ، والخيار، والقرع، وغيرها لكن هذه الفاكهة تُجلب من موضع على بُعد يومين أو ثلاثة، يسمى إذا لم تخنِّي الذاكرة حبش. والضأن يُجلب إلى هنا حيث يتم بيعه(٩١).

- **سكان مكة:**

لم يطل فارتيما الحديث عن سكان مكة، واكتفى بتحديد عدد مَنْ سكنها تقريبًا ٦٠٠٠ أسرة (٩٢).

أما بتس، فقد وصف سكان أم القرى بأنهم "بائسون، ونحيلون جدًّا، ويعتريهم الهزال، وهم داكنو البشرة"(٩٣). أما عن حرارة الطقس، فذكر أنها شديدة، والناس ينتقلون في الشوارع من جانب إلى جانب بحثًا عن الظل. والسكان خاصة الرجال ينامون عادة على أسطح المنازل تلمسًا لنسمات الهواء أو في الشوارع أمام منازلهم وبعضهم يضعون دكاكًا. وهم يرشون أرض الشارع بالماء قبل وضع فراشهم للنوم، أما بالنسبة لبتس فقد كان ينام في الهواء الطلق دون أي غطاء فوق سطح المنزل، ويتدثَّر بقطعة من الكتان المبلول التي تجف بعد قليل، وحين يستيقظ بالليل يبللها، ويتدثَّر بها من جديد(٩٤).

---

(٩١) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٨.

Foster W. (Editor), The Red Sea, p. 25

(٩٢) رحلات فارتيما، ص ٥١.

King (R.), The Pilgrimage to Mecca, p65.

(٩٣) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٧.

(٩٤) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٩.

- **مزارات خارج مكة:**

لم يتحدث فارتيما عن المزارات الواقعة خارج مكة، حيث كان في عجلة من أمره للفرار من القافلة التي جاء معها ليتوجَّه إلى اليمن. أما بتس فقد تحدَّث عن عدد من المزارات يسعى الحجاج لزيارتها خارج مكة ومن بينها غار حراء(٩٥) الذي ذكر عنه أنه يوجد فوق قمة أحد التلال كهف يسمونه حراء، ومعناه المبارك يقولون إن محمدًا –صلى الله عليه وسلم– كان معتادَ اللجوء إليه للتعبُّد والتأمل والصوم. وهم يعتقدون أنه في هذا الكهف تلقي الرسول –صلى الله عليه وسلم– جزءًا كبيرًا من القرآن الكريم بواسطة جبريل –عليه السلام– وقد دخلتُ الكهف ووجدته كهفًا عاديًّا غير مزين(٩٦). ونلحظ فيما كتب بتس عن غار حراء أن روايته تكاد تطابق ما تواتر في كتب السيرة٩٧. غير أنه لم يفته أن يقول: "هم يعتقدون" دلالة على عدم اعتقاده وكذب ما أظهر من الإسلام.

كما زار بتس صخرة مشقوقة تواتر أن صدر النبي قد شق عنده وهو صغير بيد الملائكة وعن ذلك يقول :"وخارج مكة المكرمة تقريبًا بنصف ميل يوجد تل شديد التحدر، وقد صنعوا له درجات للوصول لقمته التي يوجد عليها قبة تحت صخرة مشقوقة، يقولون إن محمدًا –صلى الله عليه وسلم– عندما كان في الرابعة من عمره حمله الملك جبريل ففتح صدره وأخرج منه مضغة سوداء تمثل الفساد أو خطايا البشر ثم أغلق صدره فعاد كما كان، ولم يشعر محمد –صلى الله عليه وسلم– أثناء هذه العملية بأي ألم، وقد تم هذا في موضع هذه الصخرة التي أقاموا عليها قبة. وقد ذهبتُ بنفسي إلى هذا المكان

(٩٥) غار حراء: هو كهف في جبل حراء بينه وبين مكة ثلاثة اميال على يسار الذاهب إلى منى. انظر ابن هشام، سيرة ابن هشام، ج١، ص ٢٤٦، حاشية ٤.

(٩٦) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٨.

(٩٧) انظر سيرة ابن هشام، ج١، ص ٢٠٥.

وصحبني كل رفاقي وقد صليت بضع ركعات كما صلوا" (٩٨).

كما زار بتس أثناء تواجده بمنىٰ صخرة مشقوقة من وسطها ويقولون إن هذا الشق ناتج عن أثر سكين إبراهيم الذي شق الحجر بدلًا منه رقبة ابنه إسماعيل بفضل توجيه الله ليده بعيدًا عن رقبة إسماعيل إنها لضربة قوية حقًّا(٩٩).

وصف المسجد الحرام:

- **المسجد:**

كان وصف فارتيما للمسجد مقتضبًا، حيث ذكر أنه في وسط مكة يوجد معبد جميل يشبه الكلوزيوم في روما إلا أنه غير مبنىٰ من الحجارة

---

(٩٨) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٩.

Wolf, One Thousand Road to Mecca, P. 115.

حادث شق صدر النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- ثابت في كتب الحديث الشريف والسيرة النبوية ومما قيل في ذلك "حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- أتاه جبريل -صلىٰ الله عليه وسلم- وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلىٰ أمه يعني ظئره فقالوا إن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس وقد كنت أرىٰ أثر ذلك المخيط في صدره." انظر صحيح مسلم، ج١، دار طيبة، الرياض، ١٤٢٦هـ، حديث ١٦٢، ص٨٧؛ وقد ورد خبر ذلك عند ابن هشام انظر: ابن هشام (عبد الملك بن هشام الحميري ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م)، السيرة النبوية، ج١، تحقيق وضبط مصطفىٰ السقا وإبراهيم الإبياري و عبد الحفيظ شلبي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص ١٧٣؛ يسري عبد الله زيدان و عبد الفتاح فتحي، خاتم النبيين، دار الهانئ للطباعة، القاهرة، ٢٠١٠م، ص٥٨-٥٩.

(٩٩) رحلة جوزيف بتس، ص ٦١.

الضخمة، وإنما من الطوب الأحمر، وله تسعون بابًا أو مائة باب، ذوات أقواس(١٠٠).

أما بتس فكان وصفه أكثر دقة وأوسع رقعة، حيث ذكر أن أبوابه تبلغ تقريبًا اثنين وأربعين بابًا(١٠١) وهو عدد غير كبير لأن الظروف أحيانًا تضطرهم لغلق بعضها(١٠٢)، وهو قريب الشبه من دار المقاصة في لندن، لكنه أوسع منه بعشر مرات. وكل أبوابه مفتوحة وتفضي لممرات مغطاة بالحصى ما عدا بعض الممرات التي رصفت بأحجار عريضة وهي الممرات المؤدية للكعبة المشرَّفة، والأروقة المحيطة بالصحن، حيث الكعبة المشرَّفة مرصوفة بأحجار عريضة جميلة ولها عقود مقنطرة، وعلى الجدران الداخلية

---

(١٠٠) رحلات فارتيما، ص ٥٣.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p. 83.

(١٠١) يبالغ بتس هنا في عدد الأبواب بينما ذكر ابن بطوطة أنها ١٩ بابًا فقط. انظر ابن بطوطة، ص ١٠٠،

وكلام ابن بطوطة هو الأصح حيث إن المسجد الحرام قد تم إعادة بنائه في العهد العثماني بأمر من السلطان سليم الثاني ٩٧٤-٩٨٢هـ (١٥٦٦-١٥٧٤م) وتم البناء في عهد ابنه مراد خان ٩٨٢-١٠٠٣هـ (١٥٧٤-١٥٩٤م)، وقد تم البناء عام ٩٨٤هـ (١٥٧٦م)، وبلغ عدد الأبواب ١٩ بابًا فقط. انظر: طه عبد القادر عمارة، تاريخ عمارة وأسماء أبواب المسجد الحرام حتى نهاية العصر العثماني، مركز أبحاث الحج، مكة، ب.ت.، ص ٧٤-٧٥.

(١٠٢) كان غلق بعض أبواب المسجد الحرام شيئًا مألوفًا خاصة في غير موسم الحج، ولم يكن بتس وحده هو من أدرك هذا الأمر لكن أدركه بعض الرحَّالة المسلمون؛ ففي سنة ٨٣٠هـ (١٤٢٦م) ورد مرسوم من القاهرة ينص على أن تسد أبواب المسجد الحرام بعد موسم الحج فيما عدا أربعة أبواب منها باب السلام، وباب العمارة، وباب إبراهيم، وباب الصفا. وعندما تضرر الناس روجع السلطان المملوكي في ذلك مما أدى إلى صدور أمر بفتح باب الزيادة وباب النبي ثم فتحت الأبواب جميعها في موسم الحج التالي. طه عبدالقادر عمارة، تاريخ عمارة وأسماء أبواب المسجد، ص ٨٢.

للأروقة توجد غرف صغيرة تدور مدار الأروقة، وقد أعدت هذه الغرف الصغيرة (الخلوات) للذين وهبوا حياتهم للقراءة والدراسة والتعبد، وهذه الطائفة تشبه إلى حد كبير طائفة الدراويش(١٠٣).

وعلى بُعد تقريبًا اثنتي عشرة خطوة من الكعبة يوجد مقام إبراهيم الذي بنى الكعبة، كما يقولون بأمر الله سبحانه، ويحيط بهذا المقام شبكة حديدية، وهو مغطًى بكسوة مزركشة جميلة، وهو مشيد كشواهد القبور المحدثة في بلادنا، ويحملق الناس في هذا المقام بحب(١٠٤).

- **الكعبة:**

وصف فارتيما الكعبة بأنها برج Tower مربع كل ضلع من أضلاعه من أربعة إلى ست خطوات. وقد غطى هذا المبنى بالحرير الأسود، وبه باب من الفضة الخالصة بارتفاع قامة الإنسان عن طريقه يمكن دخول الكعبة، وعلى جانبي الباب جرتان يقال إنهما مليئتان بالبلسم من إهداء السلطان. وعند كل ركن من أركان الكعبة يوجد حلقة كبيرة(١٠٥).

أفاض بتس في وصف الكعبة وقال: " تبلغ تقريبًا أربع وعشرين خطوة مربعة، وقد تم تثبيت حجر أسود في أحد أركان بيت الله وهو مطوق بسياج فضي، وفي كل وقت يتقدم الحجاج نحو الحجر ويقبلونه ثم يطوفون سبعة أشواط، ويصلُّون ركعتين، ويقولون إن هذا الحجر كان يُسمى الحجر

---

(١٠٣) رحلة جوزيف بتس، ص ٥. ولعل بتس يقصد هنا المجاورين الذين تركوا بلادهم وذهبوا لمكة للمجاورة، وقد أشار إليهم ابن بطوطة في رحلته وترجم لعدد منهم، انظر: رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ١١١-١١٢.

(١٠٤) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٤-٥٥.

(١٠٥) رحلات فارتيما، ص ٥٤.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p. 83.

الأسعد ويعنى الأبيض ولكنه اسودَّ من خطايا البشر الذين يقبِّلونه فسُمِّى بالحجر الأسود. ولا يخلو المطاف من الطائفين حول الكعبة ليلًا أو نهارًا، وأنها قِبلة المسلمين في صلاتهم في مختلف بقاع الأرض. وبالرغم من دقة وصف بتس لبناء الكعبة فإنه أبى إلا أن يبث سمومه لبنى قومه، فردَّد فكرة خاطئة رسمها من سبقه من الأوربيين أن الكعبة وثن يعبده المسلمون(١٠٦).

كما ذكر أن الكعبة مكسوة بكسوة من الحرير الأسود وأفاض في وصف الكسوة، وأنها مزينة بنصوص من تعاليم الإسلام إلا أنه لم يتمكن من قراءتها. كما لم يفته الحديث عن سطح الكعبة والميزاب الموجود لتفريغ ما يسقط عليها من أمطار، وكيف يسعد زوار مكة بما يسقط من الميزاب من ماء بل هناك من يجمعه ويبيعه للزوار على سبيل التبرك(١٠٧).

كما تمكَّن بتس من دخول الكعبة(١٠٨) مرتين، ووصف محتوياتها غير أنه ردَّد عدة خرافات مثل: ادعائه أن من يحملق في الكعبة يصاب بالعمي وذكر أن "هذا يذكره المسلمون"، ومن ثم حملق ولم يحدث له مكروه، يريد

---

(١٠٦) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٧.

(١٠٧) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٢.

(١٠٨) كان مسموحًا بفتح الكعبة للناس لمشاهدتها من الداخل في أيام محددة منذ الجاهلية وعن ذلك قال الصباغ:"اعلم أن من عادات بني شيبة اختياريا أن الكعبة المشرفة كانت تفتح في الجاهلية يوم الاثنين والخميس، وفي صدر الإسلام يوم الجمعة والاثنين وفي أوقات أخر من أيام السنة، منها بكرة الثاني عشر من ربيع الأول، وفي بكرة ثاني عشر من رجب وثالث عشر ذي القعدة، وفي بعض أيام الموسم في الثمان الأول من ذي الحجة وفي لياليها. كذا في درر الفرائد. أما في زماننا فتفتح في أوقات من كل سنة فتوحات عامة لجميع الناس ست عشرة مرة ثمان للرجال وثمان للنساء". انظر: الصباغ (محمد بن أحمد بن سالم المكي، ت ١٣٢١هـ)، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام، تحقيق د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م، ص ٢٧٧.

أن يثبت فساد ما يعتقده المسلمون، كما روج لما يرتكبه العامة من حماقات مثل التزاحم للنيل من ماء غسيل الكعبة أو الحصول على قطع من المكانس التي تكنس بها الكعبة(١٠٩).

وبصفة عامة ما ذكره بتس يتطابق إلى حدٍ كبيرٍ مع وصف الكعبة وكسوتها ومحتوياتها من الداخل وبابها وزينته، وكذلك في أمر السماح بزيارة الكعبة من الداخل، وقد أكد ابن بطوطة(١١٠) على إمكانية هذا الأمر.

ونخلص من ذلك إلى أن وصف بتس للكعبة تفوق بمراحل على وصف فارتيما غير أنه حشاه بالافتراءات والخرافات التي ساقها سوْق الحقائق.

- **زمزم:**

اهتم فارتيما بوصف زمزم وقال: إنه على بعد عشر خطوات أو اثنتي عشرة خطوة من الكعبة يوجد برج - يشبه إحدى مصليات كنائسنا أو كاتدرائياتنا- ذا أبواب ثلاثة أو أربعة داخله بئر رافعة، وماؤها مالح قليلًا. وعند هذه البئر يقف ستة رجال أو ثمانية لسحب المياه للناس. وعندما ينتهي الناس من الطواف يقولون: "بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم اغفر لنا"، ويقومون بسحب الماء من زمزم ويصبون ثلاثة جرادل على كل شخص، فيستحم الجميع. "ويقولون إنهم بهذه الوسيلة يتخلصون من خطاياهم التي تبقي هذا الموضع"(١١١).

أما بتس فقد حدد موقع زمزم بأنه على مسافة قصيرة من مقام إبراهيم

---

(١٠٩) رحلة جوزيف بتس، ص ٥١-٥٣.

(١١٠) رحلة ابن بطوطة، ص ٩٦-٩٧.

(١١١) رحلات فارتيما، ص ٥٥.

تجاه اليد اليسرى، ويعتبر المسلمون أن ماء زمزم مقدس ويقدرونه تقديرًا فائقًا. وفي شهر رمضان يفطرون به يقولون إنه حلو كالحليب، أما بالنسبة لي فلم أرَ أنه يختلف عن أي ماء آخر إلا أنه يميل إلى الملوحة شيئًا ما، ويشرب منه الحجاج بكميات هائلة عند وصولهم مكة المكرمة أول مرة ليس فقط ليطهروا أنفسهم، وإنما لتنفض أجسامهم كل الخطايا، وليخلصوا أرواحهم من كل الآثام. كما يحرصون على الإفطار عليه في شهر رمضان. مع الحرص على الاغتسال به لكنه ذكر أمرًا غريبًا وهو أنهم لا يغسلون به سوى الجزء الأعلى من الجسم فقط، وهذا بالطبع غير صحيح. كما أكَّد أن هذا الماء كثيرًا ما يحمله الحجاج معهم لأحبائهم في بلادهم(١١٢).

- **حمام الحرم:**

ذكر فارتيما أنه وجد في طريق مكة من ١٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ حمامة، وأكد أن المسلمين يعتقدون أن هذا الحمام من سلالة الحمام الذي تحدث للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأن هذا الحمام كان من روح القدس، أن الحمام يطير في كل أنحاء مكة ويسعد بذلك الحجاج، وأن الحبوب تباع في الحوانيت لتقدم للحمام، ولا يستطيع أي أحد أن يعتدى عليها خشية خراب مكة، بالرغم من أن هذا الحمام يلحق بالحرم كثيرًا من الضرر(١١٣).

كما لفت هذا الحمام أيضًا نظر بتس فقال: "إن في مكة آلاف من الحمام

---

(١١٢) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٧،٥٨.

أجاز الشيخ ابن باز -رحمه الله- الاستنجاء بماء زمزم وجاء في نص الفتوى " هو ماء طهور طيب يستحب الشرب منه، ولا حرج في الوضوء منه، ولا حرج في غسل الثياب منه، ولا حرج في الاستنجاء إذا دعت الحاجة إلى ذلك" عبد العزيز بن باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، ج١٠، جمع محمد بن سعد الشويعر، تنسيق موقع بن باز، ص ٢٧.

(١١٣) رحلات فارتيما، ص ٥٨.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p. 86-87.

الأزرق لا يجرؤ أحد على صيده أو إيذائه، وبعضه أليف لدرجة أنه يتناول قطعة لحم من يدك. وقد قمت بنفسي كثيرًا بإطعام كثير منه في المنزل الذي أقيم به، وهذه الحمائم تأتي أسراب كبيرة إلى الحرم، حيث يقدم لها الحجاج الطعام، فثمة أناس فقراء من أهل مكة يأتون للحج حاملين معهم نوعًا من الأواني مصنوعة من السمار مليئة بالحبوب، ويتوسلون للحجاج طالبين منهم شراء بعض الحبوب لإطعام حمامات النبي، وقد سمعت أن هذه الحمامات لا تطير أبدًا فوق الكعبة(١١٤) كما لو كانت تعلم أنها بيت الله الحرام، لكنني أعتقد أن ذلك خطأ كبير، فقد رأيت هذه الحمائم تطير في غالب الأحيان فوق الكعبة"(١١٥).

أدلة الحجاج(١١٦):

أثناء تواجد فارتيما في المدينة اصطحبهم عدد من المرشدين خلال فترة تواجدهم في الحرم النبوي، ولم يسمح لهم بالزيارة بغير مرشدين(١١٧). وبعد خروج قافلة الحج الشامي من المدينة سار مع القافلة مجموعة من الأدلاء ليرشدوهم إلى الطريق خشية الضياع في الصحراء القاحلة بين مكة والمدينة،

---

(١١٤) قال ابن بطوطة كلام مثل ذلك حول الحمام:"ومن عجائبها (الكعبة) أن حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله فإذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها الى إحدى الجهات ولم يعلوها ويقال إنه لا ينزل عليها طائر إلا إذا كان به مرض فإما أن يموت لحينه أو يبرأ من مرضه" انظر رحلة ابن بطوطة، ص ٩٨.

(١١٥) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٧.

(١١٦) دليل الحجاج، هو شخص يقوم بإرشاد الحجاج للطريقة السليمة لأداء المناسك ويعرف في مكة بالمطوِّف، انظر:

Wolf, One Thousands Roads to Mecca, p113, note (*)

(١١٧) رحلات فارتيما، ص ٤٣.

وقد ذكر أنه كان معهم خرائط وبوصلات تساعدهم في عملهم(١١٨). غير أن فارتيما لم يوضح هل هؤلاء الأدلاء مجرد أدلاء طريق أم كان لهم دور في تعريف الحجاج بالمشاعر في مكة بعد الوصول كما حدث مع بتس حين وصل مكة بعد ذلك.

أما عن أدلة الحجاج عند بتس، ففي جدة استقبلت قافلة الحج المغربي، حيث رحَّب بهم من في الميناء، وعرفوا أنهم حجاج فوفروا لهم على الفور أدلاء أو المطوفين(١١٩) وقد قدموا من مكة بغرض إرشاد الحجاج للطريق إلى مكة وتعريفهم بشعائر الحج الصحيحة، وقد أكَّد بتس أن معظم الحجاج جاهلين بالمناسك، ومن ثم فوجود الأدلاء كان من الضرورة بمكان(١٢٠). ويبدو أنه كان مألوفًا وجود أدلاء من أهل مكة يقومون بهذا الأمر مقابل أجر لمن أراد، وقد صادف ذلك السبتي في رحلة حجِّه(١٢١)، حيث قال: "فوافينا مكة شرفها الله ضحاء يوم السبت، حامدين الله تعالى على تسهيل المسير، وتيسير العسير، فتلقانا أهل مكة وأطفالها متعلقين بالناس ليعلموهم المناسك ويهدوهم المسالك، قد درّب صبيانهم على ذلك، وحفظوا من الأدعية والأذكار ما يحسن هناك".

شعائر الحج:

اهتم كل من فارتيما وبتس بوصف شعائر حج المسلمين كما مارساه خلال رحلتيهما كالتالي:

---

(١١٨) رحلا فارتيما، ص ٤٧.

(119) Foster W. (Editor), The Read Sea, p. 22, note2.

(١٢٠) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٤.

Wolf, one thousand roads, p. 113, Foster W. (Editor), The Read Sea, p.22.

(١٢١) السبتي، ملء العيبة،،ص ٨٠

الإحرام للحج[١٢٢]:

لم يكن لفارتيما وبتس أن يحكما إظهار الإسلام إلا بالتشبه بالمسلمين في أداء شعائر الحج وأولها الإحرام بالتطهر ولبس غير المخيط من الثياب. وقد ذكر فارتيما أن قافلة الحج الشامي قد أحرمت عند بئر قبل دخول المدينة المنورة، حيث مرت قافلة الحج الشامي، بالمدينة المنورة في طريقها إلي مكة، وطريقة الإحرام كما شاهدها فارتيما وقام بها مثل باقي الحجاج، نزع الثياب العادية للحاج وارتداء ملابس الإحرام المكوَّنة من قطع من الكتان النظيف مع الحرص علىٰ الاغتسال قبل ارتداء الإحرام[١٢٣]. وكان فارتيما صادقًا في شكل الإحرام لكنه لم يكن دقيقًا في تحديد موقع إحرام قافلة الحج الشامي بجانب أن زيارة قبر الرسول -صلىٰ الله عليه وسلم- ليس من شعائر الحج، وعليه فمن الواجب أن إحرام قافلة الحج الشامي يكون عند ميقات أهل المدينة، بحكم قدومهم مكة من جهتها، وهو ذو الحليفة التي تبعد عن مكة ٤٥٠كم من جهة الشمال[١٢٤]، والتي أحرم منها ابن بطوطة كما ذكر في رحلته[١٢٥].

---

(١٢٢) **الإحرام:** هو نية الدخول في الحج أو العمرة وهو أول أركان الحج، ويجب أن يكون من الميقات المحدد، ويستحب له أن يقلم أظافره ويقص شاربه وينتف إبطيه ويحلق شعر عانته، مع التجرد من الثياب المخيط والاغتسال والتطيب، وارتداء رداء وإزار يستحب فيهما البياض، ويستحب أن يكون الإحرام بعد الفريضة، ثم ينوي هل هو محرم للحج أم للعمرة. انظر البخاري (محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م)، صحيح البخاري، حديث ١٥٤٢، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص٣٠٠. ابن قدامة (عبد الرحمن بن محمد بن أحمد المقدسي ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٤م)، المغني، ج٣، دار الغد العربي، القاهرة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م؛ ص ٤٩٠-٥٢٥؛ وأيضًا، سعيد بن علىٰ القحطاني، مناسك الحج والعمرة، الرياض، ١٤٣١هـ - ٢٠٠٩م، ص ص ١٩٠-٢٠٣.

(١٢٣) رحلات فارتيما، ص ٤٢.

(١٢٤) ابن قدامة، المغني، ج٣، ص ٤٧٤؛ سيد سابق، فقه السنة، ج ١، ص ٤٥٥.

(١٢٥) رحلات ابن بطوطة، ج١، ص ٩٧.

أما عن بتس فقد أحرمت قافلة الحج التي جاء فيها إلى مكة من رابغ(١٢٦) حيث يقول: "وصلنا إلى رابغ ولبس كل الحجاج – فيما عدا النساء – ملابس الإحرام. لقد خلعوا ملابسهم المعتادة ولبس كل واحد منهم قطعتين من القماش القطني الأبيض، إحدى القطعتين تلف حول الوسط وتغطي الجزء السفلي من الأعقاب، والقطعة الثانية تغطي الجزء العلوي من الجسد عدا الرأس، ويلبس الحاج في قدمه خفًّا غير مخيط، ولا يغطي الجزء العلوي من القدم عدا الأصابع، وعلى هذا النحو يظلون حتى يصلوا إلى مكة. وتؤثر الحرارة في ظهورهم وأذرعهم ورؤوسهم(١٢٧)، حتى لو تعرض أحدهم للتلف فإن الشريعة لا تسمح له بأن يضع فوق رأسه غطاء، أو فوق بدنه لباسًا آخر غير الإحرام حتى يتحلل من إحرامه بعد ذبح أضحيته وتقديمها للفقراء، وطوال فترة الإحرام التي تستغرق سبعة أيام يحرم عليهم قص أظافرهم أو قتل قملة أو برغوث، ففي هذا سفك للدماء، بل إنهم يجدون حرجًا في نقل برغوث أو القملة من موضع في الجسد إلى موضع آخر، وأثناء لبس الإحرام لا يفسقون ولا يفجرون، ويضبطون ألسنتهم ولا يستخدمون إلا التعبيرات المهذبة، وهم لا يحلقون شعورهم في هذه الفترة أيضًا"(١٢٨).

---

(١٢٦) رابغ ميناء صغير في منتصف الطريق بين ينبع وجدة ويبعد ١٢٤ ميلاً شمال غرب مكة. انظر: Foster W. (Editor), The Read Sea and Adjacent Countries, London, 1949, p. 21, note 2.

(١٢٧) يتفق مع بتس في ذلك الورثيلاني ويقول:"أصابنا الحر حتى انسلخ الجلد عن الرأس والظهر، فما ارعوى أحد بذلك، ولا رجع وانزجر بما هنالك لعل الله أن ينظر إلينا بعين الرحمة" الورثيلاني (الحسين بن محمد)، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ضمن كتاب " المختار من الرحلات الحجازية" اختصار محمد بن حسن بن عقيل، دار الأندلس، جدة، ١٤٢١هـ – ٢٠٠م، ص ٣٦٥

(١٢٨) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٤.

Wolf, one thousand roads, p. 112-113, Peter, the Hajj,p.117; Foster W. (Editor), The Read Sea, p. 21.

ومن الجدير بالذكر أن رابغ هي ميقات الحج المصري البحري، ومنها أحرم العبدري[١٢٩] عام ٦٨٩هـ (١٢٩٠م)، والقلصادي [١٣٠] عام ٨٥١هـ (١٤٤٧م). وكان بتس دقيقًا في وصفه للإحرام من حيث الميقات المكاني وشكل وتركيبة ثوب الإحرام للرجال دون النساء وأخلاق الحج التزامًا بقوله تعالى:" **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**"[١٣١] إلا أن في كلامه كثير من المبالغة فيما يتعلق بالاحتراز في عدم قتل القمل والبراغيث وهذا الأمر فيه اختلاف، وقد أجاز عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قتله[١٣٢]، وكذلك الإمام أحمد بن حنبل -رضي الله عنه-[١٣٣]. أيضًا زعم بتس أن الشريعة تمنع أن يغطي الحاج رأسه حتى لو تلف، وهذا أيضًا غير صحيح؛ فقد أراد الله بالحجاج اليسر ولم يرد بهم العسر، وقد غطَّى الحجاج حين حج الورثيلاني[١٣٤] رؤوسهم من شدة الحر، وتورع عن ذلك جماعة ثم غطوا خشية الهلاك، لكن لا نكذبه فيما روى فربما يزيد عامة الناس من احترازهم خشية الوقوع فيما يفسد إحرامهم، بعد أن قطعوا الطريق الطويل من بلادهم إلى البقاع المقدسة بغية الحج والعمرة.

طواف القدوم:

يقول فارتيما إنه في الرابع والعشرين من مايو يبدأ الناس قبل طلوع

---

(١٢٩) العبدري(أبي عبد الله محمد بن علي ت ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)، رحلة العبدري، تحقيق د.علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، دمشق، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م، ص ٣٤٩.

(١٣٠) القلصادي، رحلة القلصادي، ص ١٣٠.

(١٣١) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ١٩٧.

(١٣٢) سيد سابق، فقه السنة، ج٣، ص ٤٦٥.

(١٣٣) ابن قدامة، ج٣، ص ٥٢٩.

(١٣٤) نزهة أنظار، ص ٣٦٦.

الشمس في الطواف حول الكعبة سبعة أشواط وهم في هذه الأثناء يتمسحون بأركانها ويقبِّلونها(١٣٥).

وجاء وصف بتس أكثر وضوحًا ودقة، حيث ذكر أنه عند وصولهم إلى مكة توضئوا عند حوض قرب الحرم، وبعد الوضوء دخلوا المسجد الحرام من باب السلام، وقام الدليل أو المطوف بقراءة عدد من الأدعية ردَّدها الحجاج خلفه، وبعدها بدأوا في الطواف حول الكعبة سبعة أشواط، ثم صلوا ركعتين (١٣٦).

السعي بين الصفا والمروة(١٣٧):

لم يتحدث فارتيما عن السعي بين الصفا والمروة. لكن بتس أفسح لهذه الشعيرة وذكر أنه بعد طواف القدوم خرج مع الحجاج للسعي بين الصفا والمروة، وأنهم كانوا يهرولون تارة ويمشون تارة، وقد سخر من هذه الشعيرة ووصف المسلمين بالكائنات البائسة(١٣٨).

---

(١٣٥) رحلات فارتيما، ص ٥٥.

(١٣٦) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٥.

Wolf, One Thousand Road to mecca, p113.

(١٣٧) هو من أركان الحج لقوله تعالى: "إن الصفا والمروة من شعائر الله"(البقرة –١٥٨).، ولقول النبي –صلى الله عليه وسلم–:"اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي" انظر: سعيد بن علي القحطاني، مناسك الحج والعمرة، ص ٣١٠.

(١٣٨) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٥.

للسعي بين الصفا والمروة شروط منها: أن يكون بعد طواف، وأن يكون سبعة أشواط تبدأ من الصفا وتنتهي بالمروة، ويكون السعي في الطريق الممتد بين الجبلين، كما فعل النبي – صلى الله عليه وسلم– ويجوز السعي راكبًا أو ماشيًا، ويستحب الرمل أو الهرولة بين الميلين الأخضرين، وهو ما شاهده بتس لكنه لم يفسره. انظر السيد سابق، فقه السنة، ج١، ص ٤٩١-٤٩٣.

Wolf, One Thousands Roads to Mecca, p. 114.

الوقوف بعرفات[١٣٩]:

لم يطل فارتيما الحديث عن الوقوف بعرفات، ولم يقل أكثر من أنه بعد الشرب من ماء زمزم: "إنهم يتجهون إلى الوادي عند الجبل ويمكثون هناك يومين وليلة"[١٤٠]. بالطبع جانب فارتيما الصواب فالوقوف بعرفة لا يزيد عن اليوم من فجر أو زوال يوم التاسع من ذي الحجة حتى فجر العاشر[١٤١]. كما تحدث فارتيما عن خطبة عرفة ومقدار خشوع خطيب هذا اليوم، وكثرة بكائه أثناء الخطبة، وربطه بين الحج وفداء إبراهيم -عليه السلام- بولده إسماعيل، غير أن فارتيما خلط كثيرًا بين الأمور على نحو أكَّد عدم فهمه لما يعتقده المسلمون في هذا الشأن مثل أنه شبه علماء الدين المسلمين بالكهنة عند المسيحيين، [١٤٢] وهذا بالطبع غير صحيح حيث لا يوجد كهنوت في الإسلام، فالصلة مستمرة بين العبد وربه ولا حاجة له بمن يصلها من البشر. كما خلط بين إسحق وإسماعيل -عليهما السلام-.

وتحدث بتس عن الوقوف بعرفة، وذكر أنه وفي اليوم الثامن بعد الشهرين – من مرور رمضان- يلبسون ملابس الإحرام ويذهبون إلى جبل عرفات الذي سُمى بهذا الاسم لأن آدم -كما يقولون- تعرف فيه على حواء مرة أخرى. وجبل عرفات ليس ضخمًا ضخامة تجعله يستوعب الأعداد الهائلة من الحجاج الذين لا يقلون كما يقال عن سبعين ألفًا كل عام، وفي

---

(١٣٩) الوقوف بعرفة هو ركن الحج الثاني وبدونه لا يصح الحج. انظر سعيد بن على القحطاني، مناسك الحج والعمرة، ص ٣٠٧.

(١٤٠) رحلات فارتيما، ص ٥٥.

(١٤١) ويرى الحنابلة أنه من فجر التاسع حتى فجر العاشر، انظر: سيد سابق، فقه السنة، ج١، ص ٤٩٥.

(١٤٢) رحلات فارتيما، ص ٥٦-٥٧.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p. 85.

اليوم التاسع من شهر ذي الحجة يعوض الله هذا العدد بملائكة من عنده ينزلون على هيئة بشر إن كان عدد الحجاج أقل من العدد آنف الذكر. ويبدو أن بتس لم يفهم شعائر الحج جيدًا، ومن ثم أثَّرت فيه الكهانة المسيحية فاعتقد أن خطيب عرفة يمنح الحجاج لقب حاج، لكنه صدق في أن لقب الحاج "لقب يظل الواحد منهم يحمله بفخر حتى مماته"(١٤٣).

المبيت بمِنَى(١٤٤):

لم يذكر فارتيما شيئًا عن المبيت بمِنَى، أما بتس فجاء فيما دوَّن "وبعد تلقيهم لقب الحاج ينفخ في البوق إيذانًا بمغادرة عرفة، وبعد ميلين أو ثلاثة في طريق العودة يبيتون ليلة لكن كل واحد منهم يجمع قبل الصلاة وقبل وصولهم لمستراحهم هذا تسعًا وأربعين حصاة صغيرة الواحدة منها في حجم البندقة(١٤٥). وفي الصباح التالي يتحركون إلى مِنى وهو المكان الذي ذهب إليه إبراهيم الخليل ليضحي بابنه إسحق ففداه الله بذبح سمين. وهناك يضحون وتبعد منى عن مكة بحوالي ميلين أو ثلاثة. وفي مِنى ينصِبُ الحجاج خيامَهم فثمة سهل واسع، ويقضون يوم الأضحى(١٤٦).

النحر(١٤٧):

يستحب النحر للحاج المفرد، ويجب على القارن والمتمتع ومن ترك

---

(١٤٣) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٨-٥٩.

(١٤٤) المبيت بمِنى من واجبات الحج ويكون في أيام التشريق يومين للمتعجل وثلاثة للمتأخر. انظر: سعيد بن علي القحطاني، ناسك الحج والعمرة، ص ٣١٢-٣١٣.

(١٤٥) رحلة جوزيف بتس، ص ٦٠.

(١٤٦) رحلة جوزيف بتس، ص ٦١.

(١٤٧) النحر من واجبات الحج ويكون بعد جمرة العقبة. انظر سعيد بن علي القحطاني، ناسك الحج والعمرة، ص ٥٧٧.

واجبًا من واجبات الحج، ومن ارتكب محظورًا، ومن جنىٰ علىٰ الحرم بصيد أو قطع شجر، ووقت النحر يكون في اليوم العاشر من ذي الحجة وأيام التشريق(١٤٨). غير أن فارتيما عند تناوله تجاوز الصواب وذكر أنهم ينحرون عند عرفة(١٤٩). وعن النحر يقول: "ما من رجل أو امرأة إلا وينحر رأسين أو ثلاثة علىٰ الأقل، بل إن بعضهم ينحر أربعة وبعضهم ينحر ستة، حتىٰ إنىٰ أعتقد صادقًا أنه قد تم ذبح أكثر من ٣٠٠٠٠ رأس من الغنم في اليوم الأول، بعد أن وليت وجوهها صوب المشرق. ويقدم كل ناحر ما نحره إلىٰ الفقراء، حبًّا لله وتقربًا إليه" وبعد النحر يتدافع الفقراء للحصول علىٰ اللحم وشوائه(١٥٠). ولعل جهل بتس بالشعائر وحكمتها جعلته لا يفهم سبب تعدد الهدي، الراجع لترك واجب أو ارتكاب محظور كما قدمنا.

أما عن بتس فروىٰ أنه في الصباح التالي لعرفة يتحرك الحجاج إلىٰ مِنىٰ، وهو المكان الذي ذهب إليه إبراهيم الخليل ليضحي بابنه إسحق ففداه الله بذبح سمين، وهناك يضحون(١٥١). ومن حديث بتس عن النحر يصر علىٰ أن الذبيح هو إسحق حسبما يعتقد المسيحيون، ولم تجد السنوات الطوال التي قضاها بتس في بلاد المسلمين في تصحيح ذلك عنده أبدًا.

رمي الجمار(١٥٢):

هو من واجبات الحج، وعدد الحصىٰ التىٰ يرمىٰ بها، سبعون حصاة أو

(١٤٨) لمزيد من التفاصيل راجع: سيد سابق فقه السنة، ج١، ص ٥٠٨-٥٠٩.

(١٤٩) رحلات فارتيما، ص ٥٥.

(١٥٠) رحلات فارتيما، ص ٥٦.

(١٥١) رحلة جوزيف بتس، ص ٦٠.

(١٥٢) رمي الجمار من واجبات الحج مرتبًا جمرة العقبة يوم النحر قبل الزوال وبعده، ورمي الجمرات الثلاث أيام التشريق بعد زوال الشمس. انظر سعيد بن علىٰ القحطاني، مناسك الحج والعمرة، ص ٣١٤.

تسع وأربعون(١٥٣). وعنها ذكر فارتيما أنه خارج مكة يوجد جدار ارتفاعه أربع قامات تحته كمية كبيرة من الحصى، وهذه الأحجار قذف بها الحجاج هذا المكان إحياء لذكرى قذف إبراهيم -عليه السلام- للشيطان بالحصى حينما وسوس الشيطان لإسحاق بعدم إطاعة أمر أبيه امتثالًا لأمر الله تعالى خشية الذبح(١٥٤)، نلاحظ أن فارتيما قد ذكر أن الذبيح هو إسحق وهذا غير صحيح بل هو إسماعيل(١٥٥)، وقد رسخ ذلك في اعتقادات المسيحيين ومن قبلهم اليهود، بسبب ذكر التوراة أن الذبيح إسحق، وأن ذلك كان بفلسطين وليس بمكة، ومن ثم لم يكن من المستغرب أن يردد فارتيما هذا الأمر(١٥٦).

أما رمي الجمار عند بتس فقد روى أن كل حاج يذهب في اليوم الأول من المبيت بمِنى ليرمي سبع جمرات على العمود الأول، ويقصدون بهذا رجم

---

(١٥٣) توزع الجمار كالتالي: جمرة العقبة يوم النحر وعددها سبع حصيات، وإحدى وعشرون يوم الحادي عشر موزعة على الجمرات الثلاث كل منها سبعًا، وإحدى وعشرون يرمي بها في اليوم الثاني عشر، وإحدى وعشرون في اليوم الثالث عشر، فيكون عدد الحصى سبعين حصاة، وإذا اقتصر على الرمي في الأيام الثلاثة ولم يرم في اليوم الثالث عشر جاز ويكون الحصى الذي يرميه الحاج تسعًا وأربعين. انظر سيد سابق: فقه السنة، ج١، ص ٥٠٠-٥٠٣.

(١٥٤) رحلات فارتيما، ص ٥٧.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p. 86.

(١٥٥) عالج ابن كثير -رحمه الله- قضية الذبيح قائلاً "الذبيح إسماعيل، لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحاق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره، والله أعلم. وهذا هو الظاهر من القرآن لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) (الصافات - ١١٢) ومن جعله حالاً فقد تكلف، ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات.... وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه - والله أعلم - من كعب الأحبار، أو من صحف أهل الكتاب ". ابن كثير(أبي الفداء إسماعيل، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م): قصص الأنبياء، دار الأنوار المحمدية، القاهرة، د.ت، ص ١٦٣-١٦٤.

(١٥٦) الكتاب المقدس، سفر التكوين، آية ٢٢، ط. القاهرة، ١٩٨٨م.

الشيطان وأفعاله، لأنهم يقولون أثناء الرجم "إني أرجم الشيطان وحزبه" وثمة عمودان آخر متقاربان يرجمون أحدهما في اليوم الثاني، والآخر في اليوم الثالث، قابلني حاج فَكِهٌ وقال :"لا بد أن ترجم بسرعة من فضلك، لأنني قد فقأت عيني الشيطان لتوي"(١٥٧).

طواف الإفاضة(١٥٨):

لم يتحدث فارتيما عن طواف الإفاضة، وكذا بتس لكنه ذكر شيئًا في معنىٰ ذلك دون أن يدرك أنه من الأركان حين قال: "وخلال الأيام الثلاثة التي يقضونها في مِنىٰ يفكر الواحد منهم إذا لم يكن واهنًا في زيارة الكعبة مرة واحدة علىٰ الأقل... وبعد الطواف والصلاة يعودون ثانية إلىٰ مِنىٰ "(١٥٩).

طواف الوداع(١٦٠):

لم يطف فارتيما طواف الوداع بل هرب إلىٰ جدة وتخفَّىٰ في ثوب الفقراء، ومكث في مسجدها مدة أربعة عشر يومًا حتىٰ تمكَّن من الإبحار إلىٰ اليمن(١٦١). أما بتس فقد روىٰ أنه في المساء السابق لمغادرة مكة المكرمة لا

---

(١٥٧) رحلة جوزيف بتس، ص ٦١.

(١٥٨) طواف الإفاضة هو الركن الثالث للحج ويفضل أن يكون بعد الرمي والنحر والحلق. سعيد بن علىٰ القحطاني، ناسك الحج والعمرة، ص ٣٠٧.

(١٥٩) رحلة جوزيف بتس، ص ٦٢.

(١٦٠) – طواف الوداع من واجبات الحج لقول النبي صلىٰ الله عليه وسلم: "لا ينفرن أحدكم حتىٰ يكون آخر عهده بالبيت"، انظر سعيد بن علىٰ القحطاني، مناسك الحج والعمرة، ص ٣١٦.

(١٦١) رحلات فارتيما، ص ٦١.

لم يسهب فارتيما كثيرًا في وصف جدة وذكر أنها مدينة غير مسورة لكن منازلها جميلة مزدحمة بالسكان والرواد من المسلمين، إلا أن اليهود والمسيحيين كان محظورًا عليهم الوصول إليها، ومما لاحظه كثرة الفقراء الذين اتخذوا من مسجد جدة مأوىٰ لهم وبينهم اندسَّ حتىٰ تمكن من الرحيل لليمن.

بد من طواف الوداع، فيدخل المرء من باب السلام فيطوف قدر ما يستطيع وبعض الناس يطوفون حتىٰ يعتريهم التعب. وتفيض عيونهم بالدمع لأنهم يودعون بيت الله، ويبدون حقيقة غير راغبين في مفارقته ويشربون من ماء زمزم حتىٰ الامتلاء، ويتراجعون إلىٰ باب الوداع، ووجوههم صوب بيت الله، وباب الوداع هذا مواجه لباب السلام، وعند خروجهم منه يعقدون أيديهم تجاه بيت الله، فمن غير اللائق أن يولوا ظهورهم للبيت عند الوداع، ويظلوا في حالة بكاء وهم يدعون ويتوسلون إلىٰ الله حتىٰ يصلوا بيوتهم.

المدينة المنورة:

يعتبر فارتيما أول أوربي مسيحي – حسبما نمىٰ إلىٰ علمنا – يصل إلىٰ المدينة المنورة، وقد حرص أشد الحرص علىٰ تصوير الأوضاع الموجودة في المدينة كما هي؛ حتىٰ تكون دليلًا لقومه في المستقبل وللاستفادة مما كتب فيما يخططون لتطويق العالم الإسلامي. ونظرًا لقدوم فارتيما للحج مع قافلة الحج الشامي فقد كانت المدينة في طريقهم ومن ثم قام بزيارة المدينة أولًا قبل الحج في مكة، وحين وصل فارتيما ومن معه للمسجد النبوي فرض عليهم عدد من الأدلاء داخل المسجد وقال عنهم :"كنا مجبرين علىٰ أن يصطحبنا بعض الأشخاص" أما عن المسجد النبوي فقد ذكر أن طوله يبلغ مائة خطوة طولًا وثمانين خطوة عرضًا ، ويوجد بابان في كل جهة من جهاته الثلاث أما جهته الرابعة فلا أبواب فيها، وسقفه مقوس وبه أكثر من ٤٠٠ عمود مطلية باللون الأبيض وبه حوالي ٣٠٠ مصباح، وعند رأس المسجد ناحية اليمين يوجد برج مربع يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه خمس خطوات، وقد غطىٰ بالحرير وعلىٰ بعد خطوتين حاجز معدني مشبك جميل، يقف الناس إزاءه لرؤية هذا البرج، وفي الجانب الأيسر من هذا الحاجز يوجد باب صغير يفضي إلىٰ البرج، ويوجد في هذا البرج باب صغير آخر وعند أحد البابين

يوجد تقريبًا عشرون كتابًا وعند الجانب الآخر خمسة وعشرون كتابًا وتتناول هذه الكتب جميعًا حياة محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- ووصايا الدين الإسلامي ، ويوجد إلىٰ الداخل من هذا الباب الثاني قبر محمد وعلي وأبي بكر وعثمان وعمر وفاطمة، وقد كان محمد زعيمًا عربيًّا أما علىٰ -رضي الله عنه- فهو زوج فاطمة ابنة الرسول -صلىٰ لله عليه وسلم- أما أبو بكر الصديق فيمكن وصفه بأنه كاردينال وأنه كان يريد أن يكون بابا، أما عثمان -رضي الله عنه- فقد كان أحد صحابته، وكذلك كان عمر، وهذه الكتب التي أشرنا إليها تتناول كل صحابته(١٦٢).

ومن غرائب ما روىٰ حول زيارته للمدينة رغبة قائد القافلة في رؤية جسد النبي الكريم في قبره، وقد ذكر فارتيما أنه عرض علىٰ المسئول عن حراسة قبره -صلىٰ الله عليه وسلم- ثلاثة آلاف دينار أشرفي فرفض رفضًا قاطعًا، وفي النهاية ذكر له أن النبي غير موجود في قبره لكنه ارتفع إلىٰ السماء وربما اتحد مع الله(١٦٣).

ومن وصف فارتيما للمسجد النبوي يبدو أن وصفه كان صحيحًا إلا ما ذكره من خرافات، مثل أن أبي بكر كان يريد أن يكون مثل الكاردينال عند المسيحيين، وهذا مخالف للواقع، فلا كهنوت في الإسلام كما ذكرنا فيما سلف، كما أنه لا يجاور قبر النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- غير قبر أبي بكر وعمر، أما قبور عثمان فاطمة وعلىٰ - رضي الله عنهم - فلا توجد في المسجد النبوي.

ناهيك عن خرافة ما رواه من رغبة أمير القافلة وهو مسلم في فتح قبر النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- من خلال رشوة، وهو ما رفضه حرَّاس القبر

---

(١٦٢) رحلات فارتيما، ص ٤٣، ٤٤.

Peter, the Hajj, p. 142-143.

(١٦٣) رحلات فارتيما، ص ٤٦.

الطاهر، إن كان للرواية نصيب من الحقيقة.

أما بتس فقد قام بزيارة المدينة بعد رحلة الحج وذكر أنها ليست إلا بلدة بائسة يحيطها سور وبها مسجد كبير لكنه لا يقارن بالحرم المكي. وفي أحد أركانه مبنى مساحته حوالي أربع عشرة أو خمس عشرة خطوة مربَّعة به نوافذ ضخمة مغطاة بشباك نحاسي، وداخل هذا المبنى الصغير بعض المصابيح والزينات وهو مقنطر وقد قيل إنه يوجد ما لا يقل عن ثلاثة آلاف مصباح حول قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو قول غير صحيح، إذ لا يوجد أكثر من مائة. إنني أتحدث عما أعرفه ورويته بعيني وفي الوسط يوجد قبر محمد (صلى الله عليه وسلم)، وثمة ستارة حريرية تحيط بقبره (صلى الله عليه وسلم) وهي ستارة غير غالية الثمن وغير جميلة، ولا يسمح للحجاج بالدخول إلى هذه الغرفة فلا أحد يدخلها إلا أغوات للإشراف على المكان وتنظيفه وإيقاد المصابيح، وكل ما يتاح للحجاج هو أن يتعلقوا بالشبابيك وأن ينظروا من خلال الشباك النحاسي ويتوسلوا بهذا النبي بحماس فائق ووجد شديد. وقد أخرج سيدي منديله الحريري من صدره بينما كان واقفًا يدعو أمام قبر الرسول(١٦٤).

وبالإضافة لقبر الرسول –صلى الله عليه وسلم– هناك قبور خلفائه، وقبر آخر قد تم إعداده لعيسى ابن مريم –عليه السلام– عندما يعود للدنيا مرة أخرى، فالمسلمون يعتقدون أن المسيح سيعود مرة أخرى بلحمه ويظل أربعين عامًا قبل أن تقوم الساعة ليؤكد صدق الدين الإسلامي ويقولون إن مخلصنا لم يصلب وإنما الذي صلب هو شخص شبيهه.

ومما كتبه بتس عن المدينة نلحظ دقة ما كتب وما سمع بشأن عيسى –عليه السلام– مما تداوله زوار المسجد بالرغم من أن أساس الاعتقاد بدفن

(١٦٤) رحلة جوزيف بتس، ص ٧٢–٧٣.

عيسىٰ حين ينزلُ إلىٰ الأرض ثانية بجوار قبر النبي وخلفائه حديث ضعيف وجد في سنن الترمذي(١٦٥)، لكن بتس ذكر ما سمع.

ويتم تزويد المدينة المنورة بالمؤن من الحبشة علىٰ الساحل الآخر للبحر الأحمر محملة بالقمح وغير ذلك من الضروريات، وهي سفن غريبة علىٰ بتس لم يرَ لها مثيلًا، ذلك أن أشرعتها من حصير كالحصير الذي يستخدمونه في بيوتهم ومساجدهم(١٦٦).

مصادر المعلومات التي جاءت في الرحلتين:

هناك كثير من المعلومات تلقاها فارتيما بشكل ذاتي من خلال المشاهدة والممارسة، فيصفها بشكل مباشر حتىٰ إنه ذكر في مواضع أنه حرص علىٰ مشاهدة كل شيء بعينيه ومن بينها الروضة الشريفة حيث دفن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-(١٦٧). وهناك معلومات سمع عنها فيقول عنها: "إنهم يقولون" ومن بينها: شخص باني الكعبة وجميع المسلمين يسلمون بأن باني الكعبة هو إبراهيم -عليه السلام- بناء علىٰ ما ثبت من القرآن والسنة وكتب الحديث، أما فارتيما كإنسان أوربي لا يؤمن بذلك ومن ثم يقول إنهم يقولون :"إن الكعبة التي طافوا حولها هي أول بيت وضع للناس، وأن إبراهيم الخليل هو بانيها"(١٦٨).

أما بتس فقد حصل علىٰ معلومة ما دوّن من خلال المشاهدة والممارسة فيصفها بشكل مباشر، وهناك معلومات سمع عنها فيقول عنها إنهم يقولون

---

(١٦٥) الترمذي (محمد بن عيسىٰ بن سورة، ت ٢٧٩هـ - ٨٩٢م)، جامع الترمذي، حديث ٣٦١٧، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ب.ت.، ص ٥٦٨.

(١٦٦) رحلة جوزيف بتس، ص ٧٢.

(١٦٧) رحلات فارتيما، ص ٣٠٠.

(١٦٨) رحلات فارتيما، ص ٥٥.

مثل إن موضع البئر هو الموضع الذي طرحت فيه هاجر ابنها إسماعيل، وقد سمعتهم يروون القصة تمامًا كما وردت في الفصل الواحد والعشرين من سِفر التكوين، ويقولون إن بئر زمزم نبت في موضع ركلة قدم الطفل إسماعيل (١٦٩).

نقد المشاهدات:

أعجب فارتيما بالروائح الزكية التي كانت تملأ المسجد الحرام أثناء رحلة حجه وعن ذلك يقول :"الحق أقول لكم لأنه من الصعب أن أصف لكم روعة الروائح التي شممتها في المعبد. أنها تظهر كرائحة مشبعة بالمسك زاخرة بأكثر العطور إنعاشًا وإبهاجًا"(١٧٠). ومن الأمور التي انتقدها فارتيما كثرة عدد الفقراء في مناطق المشاعر، حتى ظن أن كثيرًا من هؤلاء الفقراء لم يذهبوا للحج من أجل غفران ذنوبهم بقدر ذهابهم لإسكات نداء بطونهم الخاوية(١٧١).

أما بتس فلم يعجبه طعم ماء زمزم وقال :" وفي شهر رمضان يفطرون به يقولون إنه حلو كالحليب، أما بالنسبة لي فلم أرَ أنه يختلف عن أي ماء آخر إلا أنه يميل إلى الملوحة شيئًا ما"(١٧٢).

كما انتقد ما شاع بين المسلمين حول قبر حواء، حيث ذكر إن المسلمين يقولون "إن حواء مدفونة في جدة، ويصلى المسلمون الذين يصلون مكة عن طريق البحر الأحمر ركعتين عند قبرها. ولم أملك إلا الابتسام عند سماعي حكايتهم السخيفة، فقد لاحظت أنهم وضعوا حجرًا عند رأسها وحجرًا

(١٦٩) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٨.
(١٧٠) رحلات فارتيما، ص ٥٤.؛ وأيضًا انظر الكتاب المقدس، سفر التكوين، فصل ٢١.
(١٧١) رحلات فارتيما، ص ٥٦.
(١٧٢) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٧.

آخر عند قدميها وبين الحجرين مسافة طويلة تقترب من رمية سهم، وفي الوسط مصلى صغير حيث يصلي الحجاج"(١٧٣). وقد ذكر ابن جبير(١٧٤) وجود هذا القبر وقال الله أعلم بذلك لأنه لم يصل إليه من الآثار ما يؤكد هذا الزعم(١٧٥).

رأيها في شعائر ومعتقدات المسلمين:

بسبب الخلفية الكاثوليكية المتعصبة لفارتيما فقد وصف شعائر المسلمين بأنها باطلة ومما قال: "لقد تعبنا من هذه الأمور وتلك الأباطيل التي بدت من محمد" والغريب أنه ساق أكاذيب ليدعم رأيه ويقوى حجته لدى القارئ الأوربي مثل استنكاره اعتقاد بعض الدراويش أن نورًا ينزل من

---

(١٧٣) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٩.

(١٧٤) رحلة ابن جبير، ص ٥٣.

(١٧٥) مقبرة أمنا حواء أو قبر حواء هو موقع أثري كان يقع في وسط مدينة جدة، وبالتحديد في حي العمارية وسبب التسمية بهذا الاسم يعود إلى اعتقاد المسلمين بأن حواء توفيت ودفنت في ذلك الموقع من مدينة جدة، وهو أيضا أحد مصادر تسمية مدينة "جدة" نسبة إلى كلمة "جَدة" (بمعنى والدة الأب أو الأم). وينسب سكان المدينة التسمية لأم البشر حواء التي يقولون إنها دفنت في هذه المدينة التي نزلت إليها من الجنة بينما نزل جدنا آدم في الهند والتقيا عند جبل عرفات ودفنت هي في جدة. و هذه إحدى الآراء الذي ذكرها ابن كثير في كتابه البداية والنهاية. تم إغلاق الموقع عن طريق طمره بالإسمنت على إثر قرار من هيئة الأمر بالمعروف في عام ١٩٧٥، على خلفية صلاة بعض الحجاج فيها. انظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%82%D8%A8%D8%B1%D8%A9_%D8%A3%D9%85%D9%86%D8%A7_%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%A1

السماء على قبر النبي، وأنه لم يرَ هذا النور ولا أحد من رفاقه وادعى أن حراس قبر النبي يصنعون أضواء ليعتقد الناس أنها تنزل من السماء(١٧٦).

أما بتس فقد اعتنق الإسلام في الظاهر نتيجة ضغوط سيِّده عليه، وبالتالي لم يكن مؤمنًا بما يعتقده المسلمون ومن هنا استنكر كثيرًا من الأمور التي يؤمنون بها إيمانًا جازمًا ومنها: سخريته من عواطف المسلمين أثناء تأدية شعائر الحج حين قال "ولا أملك إلا أن أعجب من الكائنات البائسة التي يبدو عليهم التأثر الشديد والعاطفة الجياشة وهم يؤدون هذه المناسك، ولم أستطع إلا بالكاد أن كبح دموعي من انهمار عند رؤية حماسهم الأعمى والوثني". كما استنكر الحقيقة التاريخية التي يسلم بها المسلمون وهي أن من بنى الكعبة إبراهيم –عليه السلام– (١٧٧).

غير أنه أعجب كثيرًا باجتماع المسلمين في عرفة وقال:" لقد كان مشهدًا يخلب اللب حقًّا أن ترى هذه الآلاف المؤلَّفة في لباس التواضع والتجرد من ملذات الدنيا برؤوسهم العارية، وقد بللت الدموع وجناتهم، وأن تسمع تضرعاتهم طالبين الغفران والصفح لبدء حياة جديدة، وتستمر هذه التضرعات وتلك الابتهالات طوال أربع ساعات أو خمس أو حتى يحين ميعاد صلاة العشاء أي بعد الغروب بحوالي نصف ساعة. وأنه لأمر يدعو للأسف أن نقارن بالخلافات الكثيرة بين المسيحيين(١٧٨).

كما أعجب بتس بحرص الحجاج على استغلال كل وقتهم في مكة

---

(١٧٦) رحلة فارتيما، ص ٤٦.

(١٧٧) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٤.

(١٧٨) رحلة جوزيف بتس، ص ٦٠.

المكرمة في العبادة، فلم يكتفوا بالواجبات المفروضة وإنما راحوا يقضون كل وقت فراغهم في الحرم يطوفون حول الكعبة"(١٧٩).

تصحيح معلومات مغلوطة:

صحح فارتيما عددًا من المعلومات الخاطئة في الذهنية الأوربية عن المسلمين ونبيهم ومن بينها:

ما أشيع في أوربا أن جسد النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- معلقًا في الهــواء بمدينة مكة المكرمة كذابون يستحقون التوبيخ، فقد رأيت قبره -صلىٰ الله عليه وسلم- في المدينة(١٨٠) وقال تعليقًا علىٰ هذه الخرافة "ويجب أن تعرف أنني أقول الحق أنه لا يوجد حديد أو صلب أو مغناطيس أو أي جبل علىٰ نطاق أربعة أميال"(١٨١).

كما صحح بتس عددًا من المعلومات الخاطئة في الذهنية الأوربية عن المسلمين ونبيهم، وأشار إلىٰ أن ما يقوله هو ما شاهده وما يعرفه(١٨٢)، ومن بينها: قول بتس :"إنىٰ قرأت أخيرًا ترجمة إنجليزية للقرآن الكريم ذكر مترجمها في مقدمته أنه من غير المسموح به للعامة من المسلمين قراءة القرآن، وأن عليهم أن يعيشوا حتىٰ مماتهم لا يعرفون إلا ما يقوله علماؤهم، وهو قول أرفضه جملة وتفصيلًا، فقراءة القرآن متاحة للجميع، بل وينظرون بتوقير لكل من يحسن قراءته، والقضية عندنا هي هل يحسن المرء القراءة أم

(١٧٩) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٤.
(١٨٠) رحلات فارتيما، ص ٤٣.
(١٨١) رحلات فارتيما، ص ٤٧.
(182) Pailin (A.D.), British views on religion and religions, p370.

لا؟ والمسلم يدفع ثمانية دولارات أو عشرة مقابل نسخة من القرآن مع العلم أن دولارهم يساوى شلنين وثلاثة بنسات"(١٨٣).

وصحح أيضًا ما اعتقده بعض الأوربيين من أن كفن الرسول (صلى الله عليه وسلم) موجود بسقف المسجد بفعل جذب حجر مغناطيسي له. فصحح بتس ذلك قائلاً: "لكن صدقني أنها قصة كاذبة. فعندما نظرت من خلال الشباك النحاسي فقد رأيت أن الستائر التي تغطي القبر لا تصل إلى منتصف المسافة من الأرض إلى السقف أو حتى العقود المقنطرة؛ لذا فمن غير الممكن أن يكون كفنه -صلى الله عليه وسلم- معلقا بالسقف. ولم أسمع أحدًا من المسلمين يقول ذلك أو شيئًا قريبًا منه(١٨٤).

(١٨٣) رحلة جوزيف بتس، ص ٦٦.

Pailin (A.D.), British views on religion and religions, p370.

(١٨٤) رحلة جوزيف بتس، ص ٧٢.

Pailin (A.D.), British views on religion and religions, p370.

الخـــاتمـــة

بدا لنا بعد ما تقدم من المقارنة بين الرحلتين الكثير من أوجه الشبه أهمها أنهما: أوربيان مسيحيان، تعلما العربية، ادعيا الإسلام، قاما برحلة حج تحت ستار أنهما مسلمين، أحكما التنكر بتعلم العربية، ودوَّنا أخبار رحلة حجهما الزائفة، وتميزت كتابتهما بأنها كانت دقيقة إلى حد كبير فيما يتعلق بوصف الطريق الذي سلكه كل منهما، كما رصدا بدقة أحوال مكة والمدينة خاصة الطبوغرافية والسكانية والاقتصادية وخاصة الأخيرة، كما اعتنيا بالماء ومصادره وتنوعها على قلتها، كما وصفا شعائر حج المسلمين، كما اهتما بذكر كثير من الظواهر الأنثروبولوجية التي شاهدوها في الطريق أو في مكة والمدينة ومن ثم قدما صورة حية لطريقة حياة سكان مكة والمدينة خلال زمن زيارتهما، وما تخلل حياة هؤلاء السكان من بعض الخرافات والعادات والتقاليد. كما صححا للأوربيين عددًا من الأخطاء المتعلقة بالمسلمين، غير أنهما لم يستطيعا كبح جماح حقدهما على الإسلام والمسلمين فبدا مما دوَّنا هذا الحقد الدفين، كما اعتمدا في جل ما كتبا على ما شاهدا بأعينهم، كما يوضع الرجلان في سلة المستكشفين الأوربيين، وهاتان الرحلتان تلقيان أضواء كاشفة على تطلع الأوربيين إبان فترة الرحلتين لاستكشاف ما جهلوه من أرض الإسلام، وخاصة بلاد الحجاز، حيث الحرمان الشريفان وهي المعلومات التي وظفت فيما بعد خلال فترة الاستعمار الأوربي البغيض لقطاع كبير من العالم الإسلامي في بدايات العصور الحديثة، وبدون قصد كان لهاتين الرحلتين دور في تسجيل عدد من الظواهر الاجتماعية سادت بلاد الحجاز آنذاك.

أما عن أوجه الاختلاف فهي كثيرة:

أولا: أن فارتيما كان حرًّا حال رحلته، بينما كان بتس عبدًا لسيِّده الجزائري.

ثانيًا: جنسية فارتيما إيطالية وعمل لصالح ملك البرتغال، أما بتس فكان إنجليزيًّا.

ثالثًا: جاء فارتيما للشرق جاسوسًا لاستكشاف بلاد المسلمين من الداخل ورصد طرقها وثرواتها وسكانها في إطار حملة البرتغال لتطويق العالم الإسلامي وضرب اقتصاده بمباركة البابوية كنتيجة مباشرة لفشل الحملات الصليبية على الشرق في القرنين ٦-٧هـ (١٢-١٣م) وما تبعها من محاولات يائسة، أما بتس فقد جاء للحج رغمًا عنه تابعًا لسيده.

رابعًا: كانت رحلة فارتيما في بدايات القرن السادس عشر حينما كانت الحجاز تابعة لدولة المماليك في مصر، بينما جاءت رحلة بتس في الربع الأخير من القرن السابع عشر في عصر السيادة العثمانية.

خامسًا: سلك فارتيما الطريق البري للوصول إلى مكة مع قافلة الحج الشامي، بينما وصل بتس لمكة مع قافلة الحج المغربي عبر البحر المتوسط ومصر والبحر الأحمر.

سادسًا: ما دوَّنه فارتيما عن مكة أقل بكثير مما دوَّن بتس بحكم أن رحلة فارتيما كانت جزءًا من رحلة طويلة نحو بلاد الهند عبر مصر والشام والحجاز وفارس، ومن ثم كانت روايته تتسم بالاقتضاب وقلة التفاصيل أحيانًا، بخلاف بتس الذي خصصت رحلته بالكامل للحج وبالتالي كان لديه رقعة أوسع لتدوين ملاحظاته سواء عن الطريق أو مكان الحج او شعائره.

سابعًا: تعلم فارتيما العربية في أوربا ربما في إحدى مدارس اسبانيا، بينما تعلمها بتس في الجزائر حال أسره.

ثامنًا: قام بتس بالحديث عن كل شعائر الحج بينما أهمل فارتيما العديد منها مثل السعي بين الصفا والمروة وطواف الوداع.

تاسعًا: عاد بتس للجزائر التي قدم منها من نفس طريق ذهابه إلى مكة، بينما واصل فارتيما الطريق لليمن ومنها إلى فارس ثم الهند حيث المحطات البرتغالية حديثة التكوين آنذاك.

عاشرًا: دوَّن فارتيما رحلته كجزء من مهمة التجسس الكبيرة التي خرج فيها ممولًا من ملك البرتغال لكشف عورات بلاد المسلمين، بينما دوَّن بتس رحلته حين عاد إلى بلاده بعد فترة العبودية في الجزائر، وجاء التدوين بناء على رغبة إنجليزية في التعرف عن قرب عن مناطق المقدسات الإسلامية.

وبناء على هذه المقارنة نخلص إلى أن رحلتَي فارتيما وبتس من أهم مصادر التأريخ لمكة والمدينة والحجاز في الفترة الانتقالية بين العصور الوسطى والحديثة.

خريطة رقم (١)
طريق الحج الشامي – مسار رحلة فارتيما من دمشق إلى مكة

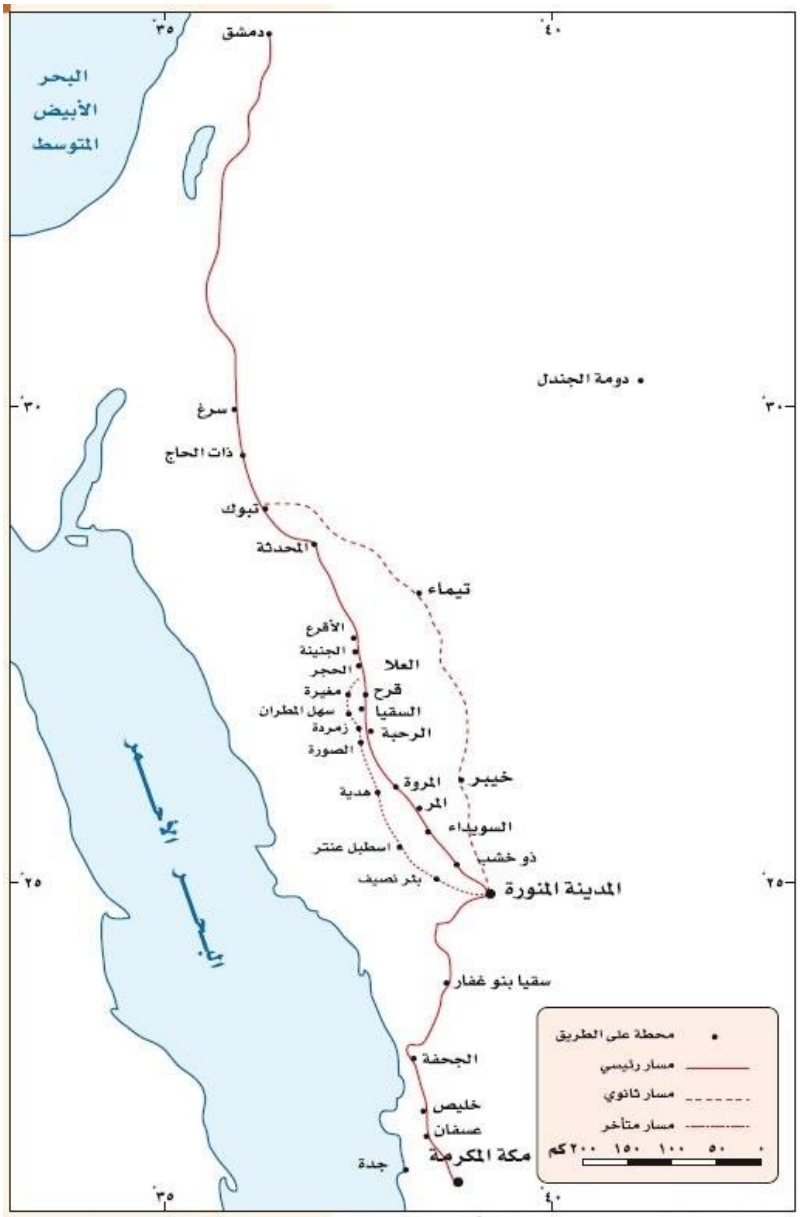

خريطة : توضح طريق الحج الشامي(*)

(*) المصدر: دار القوافل للنشر.

خريطة رقم (٢)
طريق الحج المصري – مسار رحلة بتس

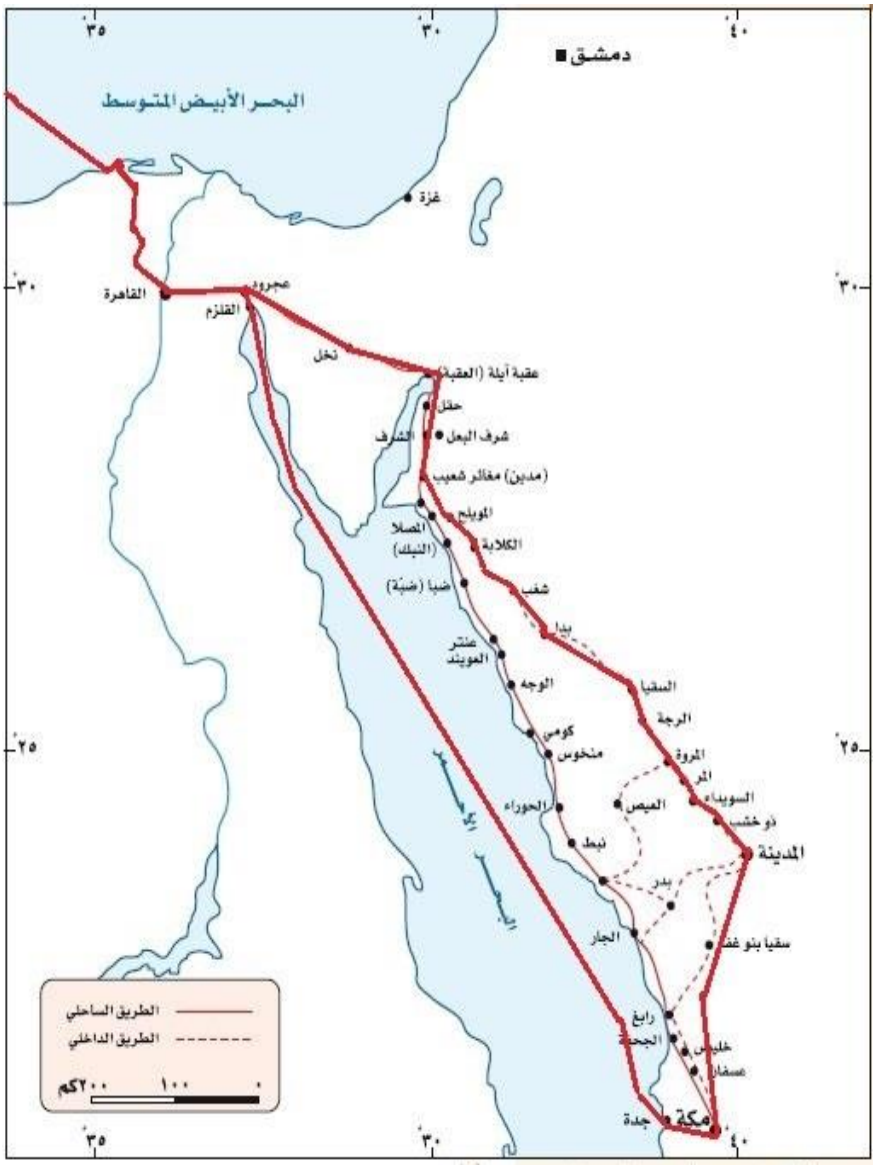

خريطة : توضح طريق الحج المصري(*)

(*) المصدر: دار القوافل للنشر.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا- المصادر العربية والمعربة:

- ابن إياس (محمد بن أحمد، ت ٧٣٢هـ / ١٥٤٢م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج٥ ، دار النشر فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٩٧٥م.
- البخاري (محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م)، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- ابن بطوطة(محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي ت ٧٩٩هـ / ١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار)، ج١، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٢٢هـ.
- الترمذي (محمد بن عيسى بن سورة، ت ٢٧٩هـ – ٨٩٢م)، جامع الترمذي، حديث ٣٦١٧، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ب.ت.
- ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن ت ٨٧٤هـ / م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨.
- جوزيف بتس، رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.
- خير الدين بربا روسا، مذكرات خير الدين باربا روسا، ترجمة د.محمد دراج، شركة الأصالة ، الجزائر، ٢٠١٠م.
- الدواداري (ابن أيبك، ت٧١٣هـ- ١٣١٣م) كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨، تحقيق ألرخ هرمان، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، ١٩٧١م.
- السبتي (محمد بن عمر بن رشيد الفهري ت ٧٢١هـ / ١٣٢١م): ملء العيبة بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى مكة وطيبة، تحقيق د. محمد الحبيب بن الخواجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
- الصباغ (محمد بن احمد بن سالم المكي، ت ١٣٢١هـ)، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام، تحقيق د. عبدالملك بن عبد الله بن دهيش، مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م
- العبدري (أبي عبد الله محمد بن علي ت ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)، رحلة العبدري، تحقيق د.علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، دمشق، ١٤٢٦هـ –٢٠٠٥م.
- العيدروس (عبد الله بن شيخ بن عبد الله)، النور السافر في أعيان القرن العاشر، تحقيق

د.أحمد حالو ومحمود الأرناؤوط وأكرم البوشي، دار صادر بيروت، ٢٠٠١م، ص ٣٣٩.
- فاسكو داجاما، يوميات فاسكو داجاما، وتقرير رحلة دوز سانتوس، ترجمة د. عبدالرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م.
- ابن قدامة (عبد الرحمن بن محمد بن أحمد المقدسي ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٤م)، المغني، ج٣، دار الغد العربي، القاهرة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- القلصادي (أبو الحسن علي الأندلسي ت ٨٩١هـ /١٤٨٦م) ، رحلة القلصادي ، تحقيق محمد أبو الأجفان ، تونس ، ١٩٧٨.
- ابن كثير(أبي الفداء إسماعيل، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م): قصص الأنبياء، دار الأنوار المحمدية، القاهرة، د.ت.
- المقريزي (أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ – ١٤٤٢م)، السلوك في معرفة دول الملوك، ج١، ق٣، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- مجهول، سيرة الظاهر بيبرس، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م.
- مسلم (ابن الحجاج القشيري النيسابوري، ت ٢٦١هـ / ٨٧٥م)، صحيح مسلم، ج١، دار طيبة، الرياض، ١٤٢٦هـ.
- الورثيلاني (الحسين بن محمد)، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ضمن كتاب " المختار من الرحلات الحجازية" اختصار محمد بن حسن بن عقيل، دار الأندلس، جدة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- ابن هشام (عبد الملك بن هشام الحميري ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م)، السيرة النبوية، ج١، تحقيق وضبط مصطفى السقى وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.
- هورخرونيه (ك. سنوك)، مكة المكرمة ، ج١، ترجمة على عودة الشيوخ، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

ثانيًا: المصادر الأجنبية

- Ernoul Chronique d' Ernoul et Bernard le Tresorier ed.Mas Laterie Paris1971.
- Varthema (Ludovico) The Travels of Ludovico di Varthema trans by J. W. Jones London 1863.
- Wolf M One thousand Roads to Mecca New York 1997.

ثالثًا: المراجع العربية

- إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨
- أحمد بن زيني دحلان، تاريخ أشراف الحجاز، تحقيق محمد أمين توفيق، دار الساقي بيروت، ١٩٩٣.
- بسام العسلي، خير الدين بربروس والجهاد في البحر ١٤٧٠-١٥٤٧م، دار النفائس بيروت، ب.ت.
- توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، مطبعة الآداب، القاهرة، ١٩٤٦م.
- حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته تحقيق دراسة تحليل، دار المعارف، القاهرة، ب. ت.
- حياة بنت عبد الله الكلابي، النقوش الإسلامية على طريق الحج الشامي بشمال غرب المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٨، بيروت ، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.
- ستيفن رنسيمان، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، ١٩٩٣.
- سعيد عاشور ، أوربا في العصور الوسطى ، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٨٣م.
- --------، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م
- --------، الحركة الصليبية،جزءان، القاهرة، ٢٠١٠م.
- سعيد بن علي القحطاني، مناسك الحج والعمرة، الرياض، ١٤٣١هـ – ٢٠٠٩م.
- شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرازق، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، مكتبة الانجلو المصري، القاهرة، ب.ت.
- طه عبد القادر عمارة، تاريخ عمارة وأسماء أبواب المسجد الحرام حتى نهاية العصر العثماني، مركز أبحاث الحج، مكة ، ب.ت.
- عبد الحميد البطريق وسليمان نوار، التاريخ الأوربي الحديث، دار الفكر العربي، ١٩٩٥.
- عز تلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م
- فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ١٩٩٨م.
- محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين فتح عكا، دار عين للبحوث والدراسات الإنسانية، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- محمد محمود السرياني ومعراج نواب مرزا، مكة المكرمة في عيون غير المسلمين دراسة في تقييم أهداف وانطباعات ومعارف الرحالة النصارى عن العاصمة المقدسة، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، العدد ٣٠٧، ١٤٢٦هـ / ١٤٠٥م.

- محمد مؤنس عوض، صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة، دار عين للبحوث، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج٤، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.
- يسري عبد الله زيدان و عبد الفتاح فتحي ، خاتم النبيين، دار الهانئ للطباعة، القاهرة، ٢٠١٠م.

رابعًا: المراجع الأجنبية:

- Michael (W.) One thousand roads to Mecca : ten centuries of travelers writing about the Muslim pilgrimage new York 1997.
- Peters (F. E)The Hajj: The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy Places Princeton university 1994.
- Foster W. (Editor) The Read Sea and Adjacent Countries London 1949.

خامسًا: الرسائل العربية:

- أميرة مصطفى يوسف: أرناط حاكم أنطاكية والكرك من ١١٥٣- ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة كلية التربية للبنات بجدة عام ١٩٨٤م.
- سماح عبد المنعم السلاوي، الجاليات الأجنبية في مصر المملوكية، رسالة ماجستير، جامعة الزقازيق، ٢٠٠٣م
- سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ٢٠٠٠م.
- محمد طه صلاح البكري، الحجاز ٨٥٩-٩٢٣هـ/ ١٤٥٤-١٥١٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- محمود رزق محمود: العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى معركة حطين ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٧٣م.

خامسًا: البحوث العربية:

- سماح عبد المنعم السلاوي، طرق الحج المصري في القرن العاشر الهجري / القرن السادس عشر الميلادي، ضمن بحوث الندوة العالمية الثامنة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية (القرن العاشر الهجري)، الرياض، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.
- عبد العزيز رمضان، صورة الإسلام في نبوءة ميثودس المجهول، المجلة التاريخية المصرية،

مجلد ٤٤، مايو ٢٠٠٦م.
- فائز علي بخيت، المماليك الجراكسة في مواجهة الحصار الصليبي على مصر، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، العدد ١٣ ١٣٤٣هـ - ٢٠١٣م.
- فكتور الكك، العلاقات الثقافية بين المسلمين والفرنج في العصور الوسطى، مجلة التفاهم، العدد ٤٢، وزارة الأوقاف العمانية، مسقط، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
- محمد فوزي رحيل، صورة الإسلام في التاريخ الكبير لمتى الباريسي، مجلة التربية، العدد ١٧٥، الدوحة، ٢٠٠١م.
- مؤيد محمود المشهداني، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني ١٥١٨-١٨٣٠م، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تكريت، مجلد ٥، العدد ١٦، ٢٠١٣م.

سادسًا: البحوث الأجنبية:

- Attiya (H. M) Knowledge of Arabic in the Crusader States in the twelfth and thirteen centuries in Journal of Medieval history vol. 25:3 1999.
- Beckingham (C.F) the date of Pittis's Pilgrimage to Mecca in Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland No. 3/4 (Oct. 1950).
- Beckingham (C.F.) SOME EARLY EUROPEAN TRAVELLERS IN ARABIA in Ninth SEMINAR FOR ARABIAN STUDIES held at The School of Oriental & African Studies and the Institute of Archaeology London on 7th-9th July 1975 (1976)
- King (R.) The Pilgrimage to Mecca: Some Geographical and Historical Aspects Erdkunde Bd. 26 H. 1 (Mar. 1972).
- Pailin (A.D.) British views on religion and religions in the age of William and Mary in Method & Theory in the Study of Religion Vol. 6 No. 4 (1994).
- Roper (Geoffreg) George Persy Badger in Bulletin (British Society for Middle Eastern Studies Vol. 11 No. 2 (1984) pp. 140-155
- Scott (W. H) University The Mediterranean Connection Philippine Studies Vol. 37 No. 2 (Second Quarter 1989).
- Warren (Jeremy) Gaspare Fantuzzi: A Patron of Sculpture in Renaissance

Bologna‚ The Burlington Magazine‚ Vol. 149‚ No. 1257‚ Sculpture (Dec.‚ 2007)‚ pp. 831–835

سابعًا: مواقع الانترنت

- المزيريب، ويكيبيديا الموسوعة الحرة على الانترنت:
http: / /ar.wikipedia.org /wiki /%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B2%D9%8A%D8%B1%D9%8A%D8%A8

- قبر حواء: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة
http: / /ar.wikipedia.org /wiki /%D9%85%D9%82%D8%A8%D8%B1%D8%A9_%D8%A3%D9%85%D9%86%D8%A7_%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%A1

Manuel I in : Encyclopedia Britannica online: http: / /www.britannica.com /EBchecked /topic /363107 /Manuel–I

كلاهما الدقة فيما قدَّم، أم أنه سعى لإرضاء العقلية الأوربية؟ من خلال سوْق خرافات طالما رُدِّدت في كتابات سابقة، أقنعوا أنفسهم بها بخلاف الحقيقة، ناهيكَ عن رصد أوجه تشابه واختلاف ما دوَّنهُ فارتيما وبتس.

Abstract

This paper is a comparative study between two travelers' accounts, from which the Europeans obtained new information about the countries of the Hejaz region. The First is, Varthema's account, which has been written as an espionage report. Whereas the second is Pitis' account, which has been written as a report by a former captive. The paper contains two accounts' data about related to Islam pilgrimage place - the cradle of the first Islam- in the countries of Hijaz, such: access roads, political, economic and social conditions.

In addition to what they wrote about Hajj rituals in their imaginations. Let's look at whether they both sought accuracy in what they presented, or did they seek to satisfy the European mentality? Through telling of myths, occasionally were mentioned in previous writings, they convinced themselves of a way of the truth, not to mention observing the similarities and differences of Varthema and Pitis.

كانت السَّيْطرة على أرض المسلمين في جنوب البحر المتوسط حلمًا راود الأوربيين طويلًا، حققوا شيئًا منه خلال ما عُرف بالحروب الصليبية على بلاد الشام ومصر وتونس خلال القرنين ١٢، ١٣م، لكن لم يطل بهم الحُلم واستيقظوا وقد أُلقي بهم في أمواج البحر المتوسط بفتح عكا عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م)(٢) على يد السلطان المملوكي الأشرف خليل بن قلاوون(٣)، ومع ذلك عاودتهم أحلام اليقظة من جديد، ومن ثَمَّ سعَوْا للحصول على مزيد من المعلومات عن أرض المسلمين ليس فقط مناطق المواجهة جنوب وشرق المتوسط، لكن أيضًا اتسعت لتسْبر أغْوارَ بلاد المسلمين؛ لمعرفة مصادر قوة وثروة هؤلاء القوم الذين كلما أصابتهم كبوة خرجوا منها أقوى ممَّا كانوا قبلها(٤)، ومن هنا كثر الجواسيس متنكرين في

---

(٢) محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين فتح عكا، عين للبحوث، القاهرة، 2009م، ص ص ٣٠٥-٣٣٠.

(٣) **الأشرف خليل بن قلاوون:** الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي النجمي، وُلد في القاهرة في عام 666هـ /1267 م – تُوفي في تروجة قرب الإسكندرية في 12 محرم693 هـ 31 / ديسمبر1293 م، هو ثامن سلاطين الدولة المملوكية البحرية. تولّى شؤون الحكم إلى جانب والده لفترة قصيرة من الزمن، وبعد وفاة الأخير نُصب خليل سلطانًا عام 1290 وبقي حتى اُغتيل في ديسمبر1293 م، يُعتبر من أبرز سلاطين أسرة قلاوون والدولة المملوكية. أشهر إنجازاته فتح عكا والقضاء على آخر معاقل الصليبيين في الشام، بعد أن استمر وجودهم فيها مائة وست وتسعين سنة. عنه انظر: المقريزي (أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ – ١٤٤٢م)، السلوك في معرفة دول الملوك، ج١، ق٣، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة، ص ص ٧٥٦-٧٩٣؛ الدواداري (ابن أيبك، ت٧١٣هـ- ١٣١٣م)، كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨، تحقيق أولرخ هرمان، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، ١٩٧١م، ص ص ٣٠٣-٣٥١.

(٤) لمزيد من التفاصيل حول ذلك الأمر انظر: رنسيمان، الحروب الصليبية، ج٣، ترجمة د.سيد الباز العريني، بيروت، ١٩٩٣م، ص ٧٢٢-٧٢٥.

صورة مسلمين، أو حديثِي عهْد بالإسلام، بجانب استنطاق من عاد من أبنائهم بعد الأسْر ليصفَ لهم أحوال المسلمين على حقيقتها. وفي هذا البحث بعوْنِ الله وحوْلِهِ نعقد مقارنةً بين اثنتين من الرحلات، التي حصل منها الأوربيون عَلى معلومات جديدة عن الشرق المسلم: الأولى جاءت في إطار التجسس الصريح متمثلةً في رحلة فارتيما، والثانية جاءت في إطار استنطاق الأسْرى العائدين متمثلةً في رحلة جوزيف بتس. وسوف يدور محور الدراسة حول ما قدم هذان الرجلان للأوربيين من معلومات عن مناطق حج المسلمين، ومهْد الإسلام الأول في بلاد الحجاز، من حيث طرق الوصول إليها، وأوضاعها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية بجانب ما رسموه لشعائر فريضة الحج - ركن الإسلام الخامس- لننظر هل تحرَّى كلاهما الدقة فيما قدَّم، أم أنه سعى لإرضاء العقلية الأوربية؟ من خلال سوْق خرافات(٥) طالما رُدِّدت في كتابات سابقة، أقنعوا أنفسهم بها بخلاف الحقيقة، ناهيكَ عن رصد أوجه تشابه واختلاف ما دوَّنهُ فارتيما وبتس. وسوف يكون عماد منهجنا في هذه الدراسة هو المنهج المقارن، وهو منهج قليل الاستخدام في الدراسات التاريخية العربية. ومن الجدير بالذكر أن الرحلتين يمكن أن تدرجا ضمن الكتابات الاستشراقية(٦) التي مهدت

(٥) كثرت الكتابات الخرافية عن الإسلام والمسلمين في أوربا العصور الوسطى، وقليل منها ما وصل إلى لب الحقيقية ومن هذه الكتابات صورة الإسلام في نبوءة ميثودس المجهول، وعند المؤرخ الإنجليزي الشهير متى الباريسي. انظر: عبد العزيز رمضان، صورة الإسلام في نبوءة ميثودس المجهول، المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٤٤، مايو ٢٠٠٦م، ص ص ٩-٣٤؛ محمد فوزي رحيل، صورة الإسلام في التاريخ الكبير لمتى الباريسي، مجلة التربية، العدد ١٧٥، الدوحة، ٢٠٠١م، ص ص ٢٤٥-٢٦٥.

(٦) لمزيد من التفاصيل حول الاستشراق: مفهومه، ودوافعه، وأهدافه انظر: فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الإسلامي (القرون الإسلامية الأولى)، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ١٩٩٨م ص ص ٢٥-٤٨.

الطريق أمام موجة الاستعمار الأوربي في العصر الحديث، بحكم غزارة المعلومات التي وفرتها الرحلتين للأوربيين حول بلاد الحجاز.

الأوضاعُ السياسيةُ إبان الرحلتين:

إن معرفة الظروف التاريخية التي تمت خلالها هاتان الرحلتان أمر ضروري؛ فقد كان لأوربا في أواخر القرن الخامس عشر، وبدايات القرن السادس عشر أهداف خاصة، لإعادة تقييم معارفها عن العالم الإسلامي، وكذلك إعادة ترتيب أوراقها، لمواجهته بأساليب جديدة قوامها العلم والمعرفة، بالإضافة إلى أسباب عملية ألحَّت على الأوربيين، لتعميق معرفتهم بالنظم السائدة في العالم الإسلامي(٧). وقد تزعَّم الأسبان والبرتغاليون تلك الحركة(٨).

أما عن الأوضاع السياسية إبان رحلة فارتيما، فقد بدأ رحلته عام ٩٠٨هـ (١٥٠٣م)، وفي طريقه للحج اجتاز الشام والحجاز، اللتين كانتا جزءًا من سلطنة المماليك(٩)، وكان الجالس على عرش السلطنة في ذلك

(٧) – محمد محمود السرياني و معراج نواب مرزا، مكة المكرمة في عيون غير المسلمين دراسة في تقييم أهداف وانطباعات ومعارف الرحَّالة النصارى عن العاصمة المقدسة، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، العدد ٣٠٧، ١٤٢٦هـ / ١٤٠٥م، ص١٦، وانظر أيضًا عبد الحميد البطريق وسليمان نوار، التاريخ الأوربي الحديث، دار الفكر العربي، ١٩٩٥، ص ٤٢-٤٥.

(٨) سبق الأسبان والبرتغاليون غيرَهم من الأوربيين في حركة الكشف الجغرافي بسبب الحماسة الدينية التي ولَّدت الصراع الكبير الذي دار على أرض شبه جزيرة أيبيريا أثناء تواجد المسلمين فيها، فلما أفلحوا في طرد المسلمين من الجزيرة تتبعوهم في شمال أفريقيا ثم ساحل أفريقيا الغربي تمهيدًا لحركة كشف طريق الرجاء الصالح. انظر: شوقي الجمل وعبد الله عبد الرازق، تاريخ أفريقيا، القاهرة، د.ت، ص ٦٧، ٨٨.

(٩) خضعت بلاد الحجاز لحكم المماليك في عهد الظاهر بيبرس عام ٦٥٨هـ. عن ذلك انظر ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨، ص ١٤٦؛ هورخرونيه (ك. سنوك)، مكة المكرمة، ج١، ترجمة على عودة الشيوخ، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ص ١٨٠.

الوقت هو السلطان قنصوه الغوري (٩٠٢- ٩٢٢هـ/ ١٤٩٧-١٥١٦م)[١٠] ولم تكن أحوال السلطنة في عهده تسير على نحو مُرضٍ؛ فقد تولَّى الحكم بعد فترة من الاضطرابات السياسية راح ضحيتها عدد من السلاطين، وفي سبيل إصلاح الأحوال فرض مغارم جمَّة على سكان السلطنة، ضج منها الناس، وخاصة أن جزءًا كبيرًا منها ضاع في الإنفاق على عمائر السلطان، وهو ما ندَّد به المؤرِّخ ابن إياس المعاصر لتلك الفترة[١١]. وفي الوقت نفسه كانت هناك حرب ضروس على حكم مكة بين الإخوة من الأشراف[١٢]، وقد ذكر فارتيما في رحلته أن الذي يحكم مكة يحمل لقب

---

(١٠) عن ظروف ولاية قنصوة الغوري انظر: ابن إياس (محمد بن أحمد، ت ٧٣٢هـ / ١٥٤٢م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج4، دار النشر فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٩٧٥م، ص ص5-1.

(١١) ابن إياس، بدائع الزهور،ج٥، ص٨٩-٩٠؛ سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م، ص ٢٩٥-٢٩٦.

(١٢) حكم مكة خلال هذ الفترة الأشراف المنحدرون من السلالة النبوية، على جدهم أفضل الصلاة والسلام، تابعين لسلطان المماليك في القاهرة، وفي عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م توفي هزاع بن محمد بن بركات وتولَّى الحكم أحمد بن محمد بن بركات الملقب بالجازاني غير أن أخاه بركات قاد جيشًا واستولى على مكة ففر الجازاني هاربًا، لكن في أوائل ٩٠٨هـ / ١٥٠٢م استطاع إزاحة أخيه والعودة ثانية للشرافة التي لم يبق فيها أكثر من عدة أشهر حتى عاد بركات بجيش قوى أعاده للشرافة وهكذا حتى عاد أحمد للحكم غير أنه مات مقتولًا بإيعاز من أخيه حميضة. عن هذا الصراع انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج٥، حوادث ٩٠٧-٩٠٨-٩٠٩هـ؛ رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٤م، ص ٥٠، حاشية ٤٢؛ محمد طه صلاح البكري، الحجاز ٨٥٩-٩٢٣هـ/ ١٤٥٤-١٥١٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص ص ٢٩.

سلطان[١٣]، ولم تكن يد الدولة المملوكية بعيدة عنه، سعيًا لبقاء الحجاز في قبضتها، في وقت عجزت فيه عن فرض هذه التبعية بالقوة بسبب كثرة الاضطرابات في أواخر أيام السلطنة[١٤]. وهذا الانهيار الذي اعترى السلطنة المملوكية كان عاملًا مساعدًا في تيسير مهمَّة الجواسيس، ومن بينهم فارتيما الذي دفع مبلغًا ماليًّا للأمير المملوكي المسئول عن رحلة الحج الشامي حتى يتخفَّى في ثوب مملوك دون أن يتحرَّى هُويته[١٥]، في الوقت نفسه تدهور اقتصاد دولة المماليك؛ بسبب إهمال أوضاع البلاد، وانهيار التجارة الخارجية، على نحو غير مسبوق في ظل كشف طريق رأس الرجاء الصالح بقيادة بارثليميو دياز Bartholomeo Diaz[١٦] عام ٨٩٢هـ (١٤٨٧م) [١٧]، ثم الوصول على الهند بقيادة فاسكو داجاما Vasco De

---

(13) Wolf M, One thousand Roads to Mecca, New York, 1997, p81.

حمل حكَّام مكة لقب أمير، وكان تابعاً للسلطان المملوكي في مصر في زمن رحلة فارتيما، وللسلطان العثماني في استنبول في عصر بتس، غير أن بعض المصادر أشارت إلى حكام مكة بلقب السلطان ربما بسبب المكانة السامية لمكة المكرمة. انظر: العيدروس (عبدالله بن شيخ بن عبد الله)، النور السافر في أعيان القرن العاشر، تحقيق أحمد حالو ومحمود الأرناؤوط و أكرم البوشي، دار صادر بيروت، ٢٠٠١م، ص ٣٣٩.

(١٤) محمد طه البكري، الحجاز، ص ٣٠.

(١٥) رحلات فارتيما، ص ٣٥.

(١٦) **بارثلميو دياز:** هو ملَّاح برتغالي كلَّفه الملك يوحنا الثاني حاكم البرتغال بحملة كشفية بحرية لارتياد الساحل الإفريقي تتمة لما قام به الأمير هنري الملاح قبل موته؛ وذلك سعيًا للوصول للهند، وقد تمكن بالفعل لأول مرة من الوصول لطرف إفريقيا الجنوبي، وأطلق الملك يوحنا الثاني على هذا الطريق "رأس الرجاء الصالح". انظر: عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوربي الحديث، ص ٤٦.

(١٧) هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج٤، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م، ص ٣؛ سعيد عاشور، أوربا في العصور الوسطى، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ٥٩٠؛ سماح عبد المنعم السلاوي، الجاليات الأجنبية في مصر المملوكية، رسالة ماجستير، جامعة الزقازيق، ٢٠٠٣م، ص ١١٣.

jama[١٨] بتمويل من ملك البرتغال دوم مانويل Dom Maneol [١٩] وذلك عام ٩٠٣هـ (١٤٩٨م)[٢٠]. ومن هنا فقد طُوِّقت دولة المماليك من الجنوب، وعُطِّلت التجارة بشكل غير مسبوق[٢١]. وفي العام التالي قام فارتيما برحلته، التي تُعد الرحلة البرية الموازية لرحلة فاسكو داجاما البحرية[٢٢].

وفيما يتعلق بالأوضاع السياسية إبان رحلة بتس فقد جاءت رحلته في الربع الأخير من القرن السابع عشر الميلادي، في وقت كانت فيه الجزائر خاضعة لحكم الدايات التابعيين اسميًّا للسلطان العثماني منذ قبول خير

---

(١٨) **فاسكو داجاما:** هو قائد بحري كلفته البرتغال باستكشاف الطريق إلى الهند، بعد النجاح في الوصول لرأس الرجاء الصالح، وقد استعان فاسكو بربان مسلم حصل اختلاف بين الباحثين حول هويته، وتمكن من الوصول للهند وعاد إلى بلاده عام ١٤٩٩م. انظر: يوميا فاسكو داجاما، مقدمة الترجمة، ص ص ٩- ١٧، عبد الحميد البطريق وعبد العزيز نوار، التاريخ الأوربي الحديث، ص ٤٧-٤٨؛ شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرازق، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ب.ت، ص ٧٠.

(١٩) **مانويل الأول من البرتغال:** هو الملك الرابع عشر للبرتغال .وتُوفي في لشبونة في 13 ديسمبر .1521 دعم حملات الاستكشاف البرتغالية في المحيط الأطلسي .وقد تم اكتشاف البرازيل وضمها إلى مملكته في عصره كما أن فاسكو دا جاما قام بتأمين طريق التجارة إلى الهند وقام ألفونسو دي البوكيرك بالسيطرة على المحيط الهندي وبحر العرب وخليج عمان وجميع الموانئ في المنطقة مما عزز دور الإمبراطورية البرتغالية. عنه انظر:

Manuel I in: Encyclopedia Britannica online:

http://www.britannica.com/EBchecked/topic/363107/Manuel-I

(٢٠) يوميات فاسكو داجاما، وتقرير رحلة دوز سانتوس، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م.

(٢١) حول الآثار المترتبة على الوصول البرتغالي للهند انظر: هايد، تاريخ التجارة، ج٤، ص ص ١٠-٤٥؛ فائز على بخيت، المماليك الجراكسة في مواجهة الحصار الصليبي على مصر، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، العدد ١٣ ١٣٤٣هـ - ٢٠١٣م،

(٢٢) رحلات فارتيما، مقدمة المترجم، ص ٩.

الدين باربا‌روسا[٢٣]، للسلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠م)[٢٤] حاميًا ووليًّا للأمر عام ١٥١٨م[٢٥]، أما مصر والحجاز فكانتا خاضعتين بشكل مباشر لسلاطين آل عثمان، وكان على حكم مصر باشا يوليه السلطان، أما مكة والمدينة فكانتا تحكمان من قِبَلِ الأشراف المنحدرين من الأسرة النبوية، ويدينون بالولاء للسلطان العثماني منذ سقوط دولة سلاطين المماليك[٢٦].

تعريف بالرحَّالتين:

يُعد فارتيما أول أوربي يتنكر في ثوب مسلم ويصل إلى الحجاز[٢٧]؛ ليتجسس على العالم الإسلامي ويستطلع أخباره، وبالرغم من ذلك

---

(٢٣) **خير الدين بارباروسا:** ولد عام (١٤٧٢م) بجزيرة لسبوس من جزر اليونان اشتغل مع أسرته بالتجارة البحرية بداية حياته ثم تمكن مع أخيه عروج من الحصول على قاعدة ميناء حلق الوادي بتونس عام ١٥٠٤م لاستغلاله في مهاجمة فرسان القديس يوحنا في مالطة، وتمكن من طرد الأسبان من ساحل الجزائر وأعلانا الولاء للسطان سليم الأول العثماني وانفرد بحكم الجزائر بعد استشهاد أخيه عروج عام ١٥١٨م وظل يعمل بالجهاد البحري حتى توفي في استنبول عام ١٥٤٦م. عنه انظر: بسام العسلي، خير الدين بربروس والجهاد في البحر ١٤٧٠-١٥٤٧م، دار النفائس بيروت، ب.ت.

(٢٤) عن **السلطان سليم الأول** انظر: إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨، ص ٨٠-٨٧؛ عز تلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م، ص ٥٦-٥٩.

(٢٥) – مذكرات خير الدين بارباروسا، ترجمة د.محمد دراج، شركة الأصالة، الجزائر، ٢٠١٠م، ص ٩٦؛ مؤيد محمود المشهداني، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني ١٥١٨-١٨٣٠م، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تكريت، مجلد ٥، العدد ١٦، ٢٠١٣م، ص ٤١٥.

(٢٦) انظر: أحمد بن زيني دحلان، تاريخ أشراف الحجاز، تحقيق محمد أمين توفيق، دار الساقي بيروت، ١٩٩٣، ص ١٦، ١٧.

(27) Peters (F. E), The Hajj: The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy Places, Princeton University, 1994, p 83.

فالمعلومات عنه قليلة ونادرة[٢٨]، ومما عُلم عنه أنه رحَّالة إيطالي، قام برحلة من أوربا إلى الشرق في القرن السادس عشر، وبالرغم من إيطالية فارتيما، وعظم ما دوَّنه في رحلته من فائدة، فإنه قُوبل بالتجاهل حتىٰ من بني جلدته الإيطاليين. وقد برَّر المؤرِّخ الإيطالي فانتوزيGaspare Fantuzzi [٢٩] هذا التجاهل بانقطاع الصلة بين فارتيما ووطنه الأم إيطاليا، وارتباطه بملك البرتغال الذي قام بتمويل رحلته الطويلة إلى الشرق، ومن هنا اعتقد عدد من الباحثين أن فارتيما برتغالي، وهناك من قال بأنه أسباني من أصول إيطالية. ومما أجمع عليه الباحثون حول فاتيما أنه وُلد في بولونيا بإيطاليا، وكان والده طبيبًا، وفي تاريخ غير معلوم تزوج فارتيما وأنجب عددًا من الأولاد، لكن لا نعلم بمن تزوج ولا من أولاده، ثم رحل من بولونيا إلى البندقية ومنها للبرتغال. ويرىٰ بيرسي بادجر George Persy Badger [٣٠] أنه كان عسكريًّا، وتبرير ذلك دقة وصفه لأدوات الحرب التي قابلها في رحلته [٣١]. وقد خرج فارتيما في رحلته بتمويل من ملك البرتغال، ومن ثم

---

(28) The Travels of Ludovico di Varthema, trans. by J. W. Jones, London, 1863, intro, p. XVII.

(٢٩) جسبيرو فانتوزي مؤرخ إيطالي عاش بين عامَي ١٤٦٥و ١٥٣٦م عنه انظر:

Warren (Jeremy), Gaspare Fantuzzi: A Patron of Sculpture in Renaissance Bologna, *The Burlington Magazine*, Vol. 149, No. 1257, Sculpture (Dec., 2007), pp. 831-835

(٣٠) بيرسي بادجر: هو مبشِّر ومستشرق إنجليزي، عاش بين عامَي ١٨١٥م و ١٨٨٨م عمل مندوبا للكنيسة الإنجليزية في العراق من قِبل رئيس أساقفة كانتربري ١٨٤٢م ولمدة ثلاث سنوات ثم تنقَّل بين البلدان العربية والإسلامية لأغراض مرتبطة بالتبشير والدبلوماسية. عنه انظر:

Roper (Geoffreg), George Persy Badger, *in Bulletin (British Society for Middle Eastern Studies,* Vol. 11, No. 2 (1984), pp. 140-155

(٣١) رحلات فارتيما، مقدمة المترجم ١٠-١٧، وأيضًا انظر Peters, The Hajj, p.83.

لم يكن من المستغرب أن يقدِّم نائب الملك البرتغالي لفارتيما حين وصل الهند براءةَ الامتياز والفروسية بجانب ضمِّهِ للجيش البرتغالي هناك(٣٢)، حيث عاد إلى المسيحية التي أخفاها طويلًا في ثوب الحاج يونس المصري ثم العجمي، وقاتل فارتيما بالفعل في صفوف الجيش البرتغالي في معركة كانانور Cananor عام ١٥٠٦م قرب كالكتا بالهند(٣٣).

وفيما يتعلق بجوزيف بتس فهو أول إنجليزي زار مكة في التاريخ، بجانب كونه أول رحَّالة أوربي يصف طريق الحج المغربي بدءًا من بلاد المغرب مرورًا بمصر، بجانب كونه أصغر الرحَّالة سنًّا، حيث قام بهذه الرحلة وهو صبي، حيث غادر إنجلترا عام ١٠٨٩هـ (١٦٧٨م) في الخامسة عشرة من عمره، وعمل بحَّارًا، في وقت اشتد فيه الصراع بين المسلمين والأوربيين في البحر المتوسط، وقد أدى هذا الصراع لوقوع بتس أسيرًا في يد أحد البحَّارة الجزائريين فاتخذه عبدًا رقيقًا، وعاش في كنفه واعتنق الإسلام في الظاهر- بضغط من سيِّده - وذهب معه في رحلة حج إلى مكة، وبعد رحلة الحج منحهُ سيدُه صك الحرية. وقد بقي بتس في جوار سيده الجزائري خمسة عشر عامًا قبل أن يفكر في الهرب والعودة إلى بلاده. وقد مكنت بتس هذه الفترة الطويلة من الإلمام بالكثير والكثير عن المسلمين وأحوالهم، كما ألمَّ بجانب لغته الإنجليزية باللغتين العربية والتركية. بقي بتس في الجزائر حتى رحل إلى الأستانة مع بعض السفن الإنجليزية، وبعد فترة رحل من تركيا بمعونة أحد التجار الإنجليز، ثم سافر إلى جنوة، ومنها تنقَّل بين عددٍ من بلدان أوربا، حيث رحّب به في ألمانيا وهولندا، وعاد أخيرًا إلى موطنه الأصلي إنجلترا التي واجهته بها الكثير من العقبات، فندم على عدم العودة

(٣٢) محمد السرياني، ومعراج مراز، مكة المكرمة في عيون غير المسلمين، ص ١٦.

(33) Scott (W. H), University The Mediterranean Connection, Philippine Studies, Vol. 37, No. 2 (Second Quarter 1989),, p.135.

إلى الجزائر والبقاء على دين الإسلام. غير أن أحواله تحسنت بعد ما عثر على والده، فاستقرت أحواله، وازداد علمًا وثقافة، وألَّف كتابًا بعنوان: "حقائق عن الإسلام"(٣٤).

دوافع الرحلة:

تعددت الدوافع لدى الأوربيين للاهتمام بمكة المكرمة والمدينة المنورة، ومن أهم هذه الدوافع: الأغراض التبشيرية، أو البحث العلمي، أو المجازفة، أو التجسس والأغراض السياسية وهو الغالب(٣٥)، ومنهم من ساقته الظروف رغمًا عنه للوصول إلى مكة.

وقد خرج فارتيما من بلاده للقيام بهذه الرحلة خلال الفترة الممتدة بين عامَي ٩٠٨- ٩١٤هـ (١٥٠٣ - ١٥٠٨م)(٣٦)، وذكر سبب خروجه في هذه الرحلة وهو: "أنه لما كانت كل البلدان مطروقة على نحو كبير بالنسبة لشعبنا، فقد فكّرت في أنه يجب عليَّ أن أرى البلاد التي لم يرها أهل البندقية،

---

(٣٤) رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م، مقدمة المترجم، ص ٧-١١.

Pailin (A.D.), British views on religion and religions in the age of William and Mary, in Method & Theory in the Study of Religion, Vol. 6, No. 4 (1994), p369-370; Michael (W.), One thousand roads to Mecca: ten centuries of travelers writing about the Muslim pilgrimage, new York, 1997, p 102-103.

(٣٥) محمد السرياني، ومعراج مراز، مكة المكرمة في عيون غير المسلمين، ص ٤.

(٣٦) رحلات فارتيما، ص ٩

The Travels of Ludovico di Varthema, trans by J. W. Jones, London, 1863, p. 6

أو لم يترددوا عليها كثيرًا"[٣٧]. هذا ما ذكره لكن لم يصرح أن رحلته كانت بغرض التجسس على بلاد المسلمين وكشف ثرواتها وعوراتها، ويرى الدكتور عبد الرحمن الشيخ مترجم الرحلة إلى العربية أن رحلة فارتيما المقابل البري لرحلة فاسكو دي جاما، كما يرى أن مهمة فارتيما كانت أصعب بكثير من مهمة دي جاما، ومصدر هذه الصعوبة أن دي جاما كانت مهمته الوصول إلى لهند عن طريق بحر لا يسيطر المسلمون على قطاع كبير منه، أمَّا مهمة فارتيما فكانت اختراق أرض المسلمين، ووصف طبيعتها، وطرق المواصلات بها، ومصادر الثروة، وطرق الدفاع وأعداد الجيوش، ومن هنا فقد أمعن فرتيما في التخفي؛ فظهر في الحجاز وفارس في صورة الحج يونس المصري أو يونس المملوك المصري، وفي الهند قدَّم نفسه بأنه الحج يونس العجمي[٣٨].

وقد جاء نجاح محاولة فارتيما حدثًا فذًّا في التاريخ الأوربي، وكان لها تقديرها في فترة ما عُرف بعصر النهضة الأوربية، وخير دليل على مكانتها وتأثيرها كثرة عدد الطبعات والترجمات التي حظيت بها هذه الرحلة[٣٩].

ولم تكن محاولة فارتيما للوصول لمكة والمدينة الأولى من نوعها بالنسبة

---

(٣٧) رحلات فارتيما، ص ٢٣.

(٣٨) رحلات فارتيما، ص ١٠، ١١.

(٣٩) حول مكانة رحلة فارتيما وطبعات انظر:

The Travels of Ludovico di Varthema, intro pp.II-XVI ; Beckingham (C.F.), SOME EARLY EUROPEAN TRAVELLERS IN ARABIA, in Ninth SEMINAR FOR ARABIAN STUDIES held at The School of Oriental & African Studies and the Institute of Archaeology, London on 7th-9th July, 1975 (1976), p 3; King (R.), The Pilgrimage to Mecca: Some Geographical and Historical Aspects, Erdkunde, Bd. 26, H. 1 (Mar., 1972), p65.

للأوربيين، بل هناك كثير من المحاولات الفاشلة، ومن أشهرها مغامرة الأمير الصليبي رينو دي شاتيون Renquld de Chqttillion أو أرناط(٤٠) كما أطلقت عليه المصادر العربية، وذلك عام ٥٧٧هـ (١١٨٢م) حين اتجه للقيام بحملة عسكرية لغزو المدينة المنورة ونقل جسد النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى أوربا ليتحول حج المسلمين من مكة إلى أوربا، معتقدًا أن الحج الإسلامي يتوجه إلى المدينة المنورة حيث دفن النبي -صلى الله عليه وسلم- وهذا يعبِّر عن قصور فكرة الأوربيين عن الأماكن المقدسة الإسلامية بالرغم من بقائهم في الشام ثمانية عقود قبل هذا الحدث، ومنهم من أتقن العربية، وعلم الكثير عن العرب، ومن بينهم رينو نفسه(٤١)، ومهما يكن من أمرٍ فلم تُكلل حملة أرناط بالنجاح بسبب يقظة السلطان صلاح الدين الأيوبي حاكم مصر والشام آنذاك، الذي أمر بإرسال حملة بحرية من مصر عبر البحر

---

(٤٠) **أرناط:** هو أمير أنطاكية خلال المرحلة الواقعة بين عامَي ١١٥٣، ١١٦٣م، فيما بعد صار سيد إقطاعية شرقي الأردن والخليل فيما بين عامَي ١١٧٧- ١١٨٧م وقد قتله صلاح الدين بيده بعد نصر حطين جزاءً لتجرُّئه على مقدسات المسلمين، عنه انظر.

Ernoul, Chronique d' Ernoul et Bernard le Tresorier ,ed.Mas Laterie ,Paris1971, pp.69-70.

محمود رزق محمود: العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى معركة حطين ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٧٣م؛ أميرة مصطفى يوسف: أرناط حاكم أنطاكية والكرك من ١١٥٣- ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة كلية التربية للبنات بجدة عام ١٩٨٤م.

(٤١) حول إلمام بعض الفرنجة في الشام باللغة العربية انظر:

Attiya (H. M), Knowledge of Arabic in the Crusader States in the twelfth and thirteen centuries, in Journal of Medieval history, vol. 25:3, 1999, pp. 203-213.

الأحمر أدركت قوات أرناط وسحقتها، وفرَّ القائد الصليبي، ونجا بنفسه وقُتل جلُّ جنوده، وسيق بعضهم ونحر يوم النحر في موسم الحج حتى يكون ذلك رادعًا لأي أوربي يفكر في هذا السلوك مستقبلًا(٤٢).

وهناك ادعاء بوصول مندوبين من قِبل دوق ميلانو Raimondo di Soncino وصلوا إلى مكة المكرمة عام ٩٠٢هـ (١٤٩٧م) وأجروا مباحثات مع تجَّار التوابل هناك، غير أن هذا الكلام من الصعب قبوله - كما أكد الدارسون الأوربيون- حيث لا يوجد دليل صادق يؤكِّد حدوث ذلك، في وقت كان وصول الأجانب فيه إلى مكة صعبًا أو مستحيلاً(٤٣).

وإذا كان فارتيما قد جاء إلى مكة بناء على تخطيط مسبق بغرض التجسس كما بدا لنا، فالأمر كان مختلفًا مع بتس الذي ساقه القدر سوقًا للوصول لأطهر بقاع الأرض. ولم يحدد جوزيف بتس تاريخًا محددًا لرحلته للحج، ويرجح Beckingham أن ذلك كان خلال الشهور الأربعة الأخيرة من عام ١٠٩٦ه، الموافقة للفترة الممتدة بين أغسطس ونوفمبر عام ١٦٨٥م، وكان ذلك في صحبة سيِّدهِ(٤٤).

ولم يذهب بتس إلى الحج باختياره، لكنه شارك فيه مدفوعًا بحرص سيِّدهِ عليه -على ذكر بتس-، فكما مارس عليه ضغوطًا حتى اعتنق الإسلام،

---

(٤٢) حول محاولة أرناط الفاشلة لغزو المدينة المنورة انظر: محمد مؤنس عوض، صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة، دار عين للبحوث، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ١٣٢-١٣٧
Beckingham (C.F.), SOME EARLY EUROPEAN TRAVELLERS IN ARABIA, p.1-2

(43) Beckingham (C.F.), Some Early Travels in Arabia, ,p 11.

(44) Beckingham (C.F), The date of Pittis's Pilgrimage to Mecca, in Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, No. 3/4 (Oct.1950), pp. 112-113

فقد صحبه -علىٰ غير اختيار- في رحلة الحج اعتقادًا منه أنه يحسن إليه، وكما قبل بتس الإسلام في الظاهر، فلم يكن له أن يرفض رحلة الحج وإلا أكد فساد عقيدته وهو ما لا يُحمد عقباه، ويبدو أن السيد الجزائري قد خُدع في بتس، الذي يبدو أنه قد أتقن التظاهر بالإسلام، وعليه فقد أعتقه بعد عودته من رحلة الحج بفترة قصيرة(٤٥). ويرىٰ البعض أن "رحلته تمثل انطباعات رجل إنجليزي مليء بالتحامل، وعدم الثقة في الأجانب، وربما يكون ذلك لسوء المعاملة التي لقيها من أسياده المتعددين في أثناء عبوديته"(٤٦).

خط سير الرحلة:

بدأت رحلة فارتيما نحو مكة كما حدد في ٨ إبريل ١٥٠٣م (٤٧) وهو الموافق ليوم ١٠ شوال ٩٠٨هـ، وهو توقيت يقارب من توقيت خروج ابن بطوطة (في الوقت نفسه من السنة) حيث خرج من دمشق في مستهل شوال من عام٧٢٦هـ(٤٨) الموافق ٣١ أغسطس ١٣٢٦م أي أن قافلة الحج الشامي التي خرج فيها فارتيما قد تأخرت بمقدار عشرة أيام عن رحلة حج ابن بطوطة، لكنها تتوافق مع نفس يوم خروج رحلة ابن رشيد الفهري الذي غادر دمشق مع قافلة الحج في ١٠ شوال ٦٨٤هـ الموافق ٩ ديسمبر ١٢٨٥م(٤٩).

---

(٤٥) رحلة جوزيف بتس، المقدمة ص ١٠.

(٤٦) محمد السرياني، ومعراج مراز، مكة المكرمة في عيون غير المسلمين، ص ٣٠.

(٤٧) رحلات فارتيما، ص ٣٦.

(٤٨) ابن بطوطة (محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي ت ٧٩٩هـ / ١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة، ج١، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٢٢هـ.، ج١، ص ٧٩.

(٤٩) السبتي (محمد بن عمر بن رشيد الفهري ت ٧٢١هـ / ١٣٢١م): ملء العيبة بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى مكة وطيبة، تحقيق د. محمد الحبيب بن الخواجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، ص ١؛

يقرر مؤلِّف كتاب الحج أن خط سير فارتيما في رحلته إلى مكة كان متميزًا بالنسبة لغيره من الأوربيين، حيث إنه أول أوربي وصل مكة عن طريق الحج الشامي البري، وقد استمر في هذا التفرد حتى كرره الرحَّالة بوركهارت(٥٠)، أما من قام بالرحلة غيرهما فقد سلك طريق مصر البحر الأحمر ينبع (٥١). خرج فارتيما من البندقية في إحدى سفن التجار متوجهًا نحو الإسكندرية، ومنها وصل القاهرة ثم عاد الإسكندرية(٥٢). من الإسكندرية نزل فارتيما إحدى السفن منطلقًا نحو بيروت، ومنها أخذ يتنقل بين المدن الشامية مثل طرابلس وحماة ثم وصل دمشق، وفيها أخذ يخطط لطريقة التخفي والتنكر في ثوب حاج حتى يتمكن من الالتحاق بقافلة الحج الشامي التي تنطلق من دمشق قبل الحج بفترة كافية(٥٣).

ويبدو أن فارتيما قد أتقن العربية قبل ذلك(٥٤) وغالبًا في بلاده، حيث كانت هناك موجة عالية لتعلم اللغة العربية حسبما أوصى به البابا‌وات

---

(٥٠) وُلد سنة 1784 م من أب سويسري وأم إنجليزية، والتحق بوركهارد في الجمعية الملكية المعنية بالاكتشافات الجغرافية في أفريقيا.

وعلى الرغم من أن أغلب نشاطات الجمعية كانت تدرس مجاهل أفريقيا إلا أن الدين الإسلامي كان مثيرًا لبركهارت وخاصة مع ظهور الدولة السعودية سنة ١٧٤٥م، فقرر بركهارت ترك الجمعية ودراسة اللغة العربية في جامعة كامبردج .وأعفى لحيته ليرافق الحجاج الأفارقة إلى الشرق متنكرًا بشخصية رجل مسلم ألباني اسمه الحاج إبراهيم، ووصل إلى حلب وتعمق أكثر باللغة العربية واتصل بقبائل عنزة في بلاد الشام. رحل إلى مصر سنة ١٨١٢م واتصل بمحمد علي باشا الذي كان يتقلد ولاية مصر للتو، ومكلف بحرب آل سعود، ورافقه بركهارت لغزو جزيرة العرب، ومكث بين مكة والمدينة من سنة ١٨١٤م إلى سنة ١٨١٦م. خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٨، بيروت، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م، ص ٢٦٤.

(51) Peter, The hajj, p. 83.

(٥٢) رحلات فارتيما، ص ٢٣.

(٥٣) رحلات فارتيما، ص ٢٣.

(٥٤) رحلات فارتيما، ص ص ٢٤-٤٣.

المبشِّرون باستخدام العقل والحُجة في مخاطبة المسلمين؛ بغرض تحويل المسلمين للمسيحية، ووسيلتهم في ذلك تعلم العربية، وفي مقدمة من تبنى هذا المسعى رامون لول الراهب الأسباني(٥٥)، بعد أن فشلت الوسائل العسكرية في السيطرة على الساحل الشامي بفقد عكا عام ٦٩٠هـ (١٢٩١م) وباقي الجيوب الصغيرة بعد صراع مرير استمر قرنين من الزمان(٥٦).

بعد استقرار فارتيما في دمشق لفترة تمكن من جمع معلومات حول قافلة الحج الشامي التي تنطلق كل عام من دمشق، وهناك تخفَّى في زي الحج يونس المصري، وقام برشوة أمير الركب المملوكي لرحلة الحج حتى ألبسه زي المماليك، ومنحه جوادًا حتى لا يتعرف عليه أحد، وخرج معهم من دمشق إلى منطقة المزيريب التي تبعد عنها مسيرة ثلاثة أيام(٥٧). ومنها إلى منطقة سدوم والبحر الميت بعدها غاصوا في الصحراء حتى وصلوا إلى المدينة المنورة ومنها إلى مكة المكرمة (٥٨). وهذا الطريق يتفق إلى حد كبير مع

---

(٥٥) سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج٢، ص ٤٦٤-٤٦٥؛ فكتور الكك، العلاقات الثقافية بين المسلمين والفرنج في العصور الوسطى، مجلة التفاهم، العدد ٤٢، وزارة الأوقاف العمانية، مسقط، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص ٣٢٩.

(٥٦) عن ذلك انظر: محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين فتح عكا، ص ٣٠٥-٣٤٠.

(٥٧) **المزيريب:** هي بلدة في أقصى جنوب سوريا وهي تعد جزءًا إداريًّا من محافظة درعا وتقع شمال غرب مدينة درعا على مقربة من الحدود السورية الأردنية .من بين البلدات المتاخمة، الشيخ سعد و نوى إلى الشمال، داعل و طفس و الشيخ مسكين إلى الشمال الشرقي و اليادودة إلى الجنوب الشرقي. عنها انظر: المزيريب، ويكيبيديا الموسوعة الحرة على الانترنت:

http://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B2%D9%8A%D8%B1%D9%8A%D8%A8

(٥٨) رحلات فارتيما، ص ص ٣٥-٥٠.

طريق الحج الشامي [٥٩].

والطريق الذي سلكه فارتيما هو نفسه تقريبًا الذي سلكه ابن بطوطة في رحلته للحج عام ٧٢٦هـ(١٣٢٦م)، غير أن ابن بطوطة كان أدق وصفًا وأكثر تفصيلًا من فارتيما، كما كان على علم بأهم المنازل التي نزل بها خاصة ما يرتبط بها بالسيرة النبوية مثل بصرى وتبوك[٦٠].

هناك سؤال يطرح نفسه حول سبب رحيل فارتيما إلى دمشق ليلتحق بركب الحج الشامي، ولم يبق في القاهرة ليشارك ضمن ركب الحج المصري وهو بالطبع أكبر حجمًا وأعظم تأمينًا وأوفر في المؤن والعتاد، كما أنه كان سوف يوفر عليه عناء السفر إلى بلاد الشام؟ وهناك احتمال أول وهو رغبته في توفير معلومات أكثر عن مدن بلاد الشام، وربما نتخذ من اقتضاب روايته عن القاهرة والإسكندرية في حين أخذ في بسط المعلومات عن بيروت ودمشق بشكل أوسع، وكلما توغل بعيدًا عن ساحل البحر أفاض في الوصف، وذكر هو نفسه أن ما شاهده في القاهرة لا يختلف كثيرًا عما يعلمه قبل وصوله إلى مصر إلا في قليل من التفاصيل، فالإسكندرية على سبيل

---

(٥٩) **طريق الحج الشامي:** يمر طريق الحج الشامي البري بثلاث دول في الوقت الحالي هي سورية والأردن والسعودية. في القسم السوري تسير القافلة من دمشق للكسوة ومنها إلي حوران وبصري والمزيريب ودرعا. في القسم الأردني تسير القوافل خان المفرق وخان الزبيب ثم القطرانة ثم إلى خان الزبيب والبلقاء والحسا وعنيزة ومعان وبطن الغول والمدورة، وبها ينتهي القسم الأردني. أما عن القسم السعودي فيبدأ من حالة عمار ثم ذات الحاج وبعدها تبوك ثم الأخضر والأقراع والحجر ووادي القرى ومنها للمدينة المنورة. حول تفاصيل هذا الطريق راجع: حياة بنت عبد الله الكلابي، النقوش الإسلامية على طريق الحج الشامي بشمال غرب المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م، ص ص ١٧-٣٠.

(٦٠) رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ٧٩، حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته تحقيق دراسة تحليل، دار المعارف، القاهرة، ب. ت، ٥٦-٦١

المثال ذكر عنها عدة أسطر ختمها بعبارة :"سرعان ما غادرت الإسكندرية فهي معروفة للجميع"(٦١)، وعن القاهرة يقول :"لم أذكر شيئًا عن ثراء القاهرة وجمالها، وعن كبرياء المماليك، فكل أولئك معروفة لأهل بلدي"(٦٢). وبجانب ذلك لم يكن من الحكمة الانضمام لقافلة الحج المصري، خاصة أن هذه الفترة كانت فترة شك في الأجانب وأشباههم في ظل تصاعد الصراع المملوكي البرتغالي في المحيط الهندي عقب الدوران حول إفريقية، وانتشار أخبار عن تطلع البرتغاليين لغزو الحجاز، مع زيادة احتمالية اندساس الجواسيس الأوربيين في القوافل لكشف عورات بلاد المسلمين، وبالطبع إجراءات الأمن تكون في درجتها القصوىٰ في العاصمة، وهو ما يقلل من إمكانية اندساسه أو تخفيه في وسط الحجاج، أما في دمشق فكان الأمر أيسر كما بدا لنا باستخدام المال في وقت كثرت شكايات المماليك من تأخر أعطياتهم، ومن ثم كان من السهل أن يسيل لعاب المماليك أمام إغراءات المال، وهو ما سهل من مهمة فارتيما ليتخفَّىٰ في زي الحاج، ويسمِّىٰ نفسه يونس المصري(٦٣).

ويبدو أن محاولات الوصول إلىٰ الحرمين الشريفين من قبل الجواسيس الأوربيين قد صارت معلومة، ومن ثم أخذ حكَّام مكة حذرهم من هذا الأمر، وصاروا يعتنون عناية خاصة بتفحص الحجاج حتىٰ تمكَّن حاكم مكة الشريف بركات عام ٩١٦هـ (١٥١٠م) من القبض علىٰ ثلاثة أشخاص اشتبه بهم، وظهر أنهم جواسيس من قِبل إحدىٰ الدول الأوربية فوضعهم في الحديد وأرسلهم إلىٰ السلطان في القاهرة(٦٤). وقد انتشرت في الأدبيات

(٦١) رحلات فارتيما، ص ٢٣.

(٦٢) رحلات فارتيما، ص ٢٤.

(٦٣) رحلات فارتيما، ص ٣٥.

(٦٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج٤، ص ١٤٥.

العربية فكرة تنكر الأوربيين في ثوب مماليك وتجار وحتى فقهاء، وبمراجعة الرواية الشعبية "سيرة الظاهر بيبرس" يمكن متابعة هذه الظاهرة على نطاق واسع(٦٥).

وقد حدد فارتيما مدى الرحلة الزمني من المزيريب حتى مكة بأنه يستغرق أربعين يومًا وأربعين نهارًا، وأن القافلة من ٣٥٠٠٠ جمل، و٤٠٠٠٠ حاج و٦٠ من الحراس المماليك كان هو شخصيًّا من بينهم(٦٦)، وقد تركت هذه الرحلة كثيرًا من الانطباعات على فارتيما، أهمها:

حسن تنظيم وإدارة قافلة الحج، حيث لحظ فارتيما صرامة القائد المملوكي لحرس القافلة، فهو أدرى بالطريق وطريقة تأمين القافلة وكيفية مواجهة الصعاب إذا ما واجهتهم، كما لحظ فارتيما وجود لغة إشارة يستخدمها قائد القافلة، وأن جميع من في القافلة لديهم قدرة على تمييز هذه الإشارات وتنفيذها حال صدورها. لحظ أيضًا امتثال كل مَنْ بالقافلة لأوامره من حيث نظام القافلة، وأخيرًا معاونة القادرين على القتال من الحجاج لحرس القافلة في حالات الضرورة(٦٧).

وفيما يتعلق بمخاطر الطريق، فقد ذكر أن العشائر البدوية غير المنظمة قد ألفت مهاجمة قوافل الحج؛ بغرض الحصول منها على نوع من الأتاوات بزعم أن المناطق التي يقيمون فيها أملاكهم الخاصة، ومن يمر بها يجب عليه أن يدفع مقابل ذلك، وإلا تعرضت قافلته للنهب وخاصة إذا كانت قليلة التأمين(٦٨)، ومما لحظه فارتيما على الجماعات المهاجمة أنه بالرغم من كثرتها

---

(٦٥) سيرة الظاهر بيبرس، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م، متفرق.

(٦٦) رحلات فارتيما ص ٣٦، وانظر أيضًا: Peter, The hajj, p. 83.

(٦٧) رحلات فارتيما، ص ٣٦-٤٠.

(68) Petter, The Hajj, p. 159.

فإنها غير منظمة، وفقيرة التسليح وبالتالي كانت ضحاياهم من الهجوم على القوافل خاصة جيدة التسليح كانت كبيرة جدًّا، ففي معركة نشبت بين قافلة فارتيما المحمية ب٦٠ مملوكًا، عشرون أمام وعشرون خلف وعشرون لحماية القافلة من الجانبين لم يخسر الحجاج أكثر من رجل وامرأة، بينما فقد البدو ١٦٠٠ قتيل[٦٩] وهذا لا يخلو من مبالغة، كما نشب قتال بين حرس القافلة والبدو بين المدينة ومكة المكرمة، وتغلَّب القائمون على حراسة القافلة على المهاجمين بسهولة[٧٠].

ومن أهم ملحوظات فارتيما ما ذكره حول مصادر المياه بالطريق التي تنوعت بين الحفر في التربة الرملية أو الطينية إذا صادفتهم، أو الحصول على الماء من أحواض المياه التي أقيمت بغرض الصدقة من المحسنين في هذه البقاع القاحلة[٧١]، وقد وصف ابن بطوطة[٧٢] شدة جفاف هذه البقاع بقوله :""داخلها مفقود، وخارجها مولود"، ناهيك عن محاولات القبائل القريبة من الآبار والعيون ابتزاز الحجاج، وهو ما كان يفتح بابًا للتشاحن مع الحجاج وصل خلال رحلة فارتيما إلى الاقتتال [٧٣].

أما عن مسار رحلة بتس، فقد حرص على تحديد مسارات الحج المختلفة من شتَّى بقاع المعمورة المعروفة في عصره وذكر أنها أربعة قوافل: قافلة الحج المغربي، وقافلة الحج المصري، وقافلة الحج الشامي، وأخيرًا قافلة الحج الهندي، وبالطبع سار بتس مع قافلة الحج المغربي وفصَّل مسارها

(٦٩) رحلات فارتيما، ص ٣٩-٤٠.

(٧٠) رحلات فارتيما، ص ص ٤٩-٥٠.

(٧١) رحلات فارتيما، ص ص ٣٧-٣٩

(٧٢) رحلة ابن بطوطة، ص ٧٩-٨٠؛ محمد بن حسن الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة النبوية، ص ٢٢١.

(٧٣) رحلات فارتيما، ص ٣٩.

كالتالي: تنطلق من مراكش في المغرب وتسير برًّا بحذاء الساحل الجنوبي للبحر المتوسط حتى تصل إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة ثم القلزم (السويس) ومن هناك يمكن ركوب البحر حتى جدة(٧٤) ومنها إلى مكة. ويمكن أن يحدث تغيير طفيف في المسار من المغرب إلى مصر بجعل الرحلة بحرية حيث إنها أقل عناء من الرحلة البرية وهو ما جرى مع بتس؛ حيث ركب مع سيِّده في سفينة لتنقلهم إلى مصر مع شدة الحذر خوفًا من القراصنة الأوربيين، وإمعانًا في التخفِّي رفع ربان السفينة الأعلام الفرنسية ذات الصلبان. وقد أكد بتس أن موظفي الإدارة في الجزائر لم يكن من الممكن لهم المشاركة في الحج دون إذن من الداي (لقب حاكم الجزائر) وإلا حُرموا من مرتب عام كامل(٧٥).

ومما لحظه بتس كثرة المؤن التي تحمل مع قافلة الحج، حيث إنها تكفي لمدة أربعة أشهر لزوم طريق الذهاب والعودة. أيضًا أوضح أن كل سفينة من سفن قافلة الحج البحري كانت تحصل على ما يكفيها من الماء الصالح للشرب من السويس عن طريق الشراء، حيث يقوم كل راكب على السفينة بشراء كمية من الماء تكفيه بشكل شخصي لا يسأل عنه ربان السفينة. كما لحظ بتس اضطراب البحر عند المرور بموضع عبور بنى إسرائيل في خليج السويس بالقرب من الطور. وأكد بتس أن الإبحار في البحر الأحمر محفوف بالمخاطر خاصة مع الاقتراب من الساحل، حيث كان من الممكن أن تصطدم السفينة بإحدى الصخور غير المرئية وبالتالي كانت السفن تسير نهارًا وتقف ليلًا خشية الاصطدام بالصخور في ظلمات البحر(٧٦).

---

(٧٤) ذكر بتس أن جدة ه ميناء مكة وأن بينهما مسيرة أقل من يوم Wolf, One Thousands Roads to Mecca, p113.

(٧٥) رحلة جوزيف بتس، ص ص ٢١-٤١.

(٧٦) رحلة جوزيف بتس، ص ص ٤١-٤٣، انظر أيضًا: Peter, The hajj, p.83.

ومما صادفه بتس في رحلته البحرية أحد المقامات قرب شاطئ البحر ويعرف بمقام المرابط، وقد أكد أن هناك كثيرًا من المعتقدات الخرافية مرتبطة عند البحَّارة بهذا المقام، حيث كانوا عند الاقتراب من المقام يجمعون الصدقات حسب رغبة كل حاج ويضعونها في سفينة صغيرة يدفعونها لتصل إلى المقام، إذ كانوا يعتقدون أنها تصل إلى الشيخ المرابط في ضريحه، بينما أكَّد بتس أن معظم المال كان البحارة يستولون عليه تحت هذا الزعم، وما يصل إلى الضريح يكون أقل القليل. وأكد بتس أن لضريح المرابط حرمة فمن دخله وكان من أصحاب الجرائم لا يجرؤ طالبوه على اقتحام الضريح للقبض عليه مهما لبث بالداخل(٧٧). وبمراجعة كتب الحجاج المسلمين لم يوجد ما يؤيد ما رواه بتس عن مقام المرابط، غير أننا لا ننفي صدق بتس، فهذا الموضع لا يستحق أن يكذب فيه بل هو يروي ما شاهده وسمعه ليس أكثر، بخلاف حديثه عن عقائد المسلمين ومحاولاته اليائسة للتشكيك فيها كما سنرى، بجانب أن التصوف كان منتشرًا إلى حد كبير في العصر العثماني؛ ومن ثم كثرت المقامات في شتَّى بقاع السلطنة(٧٨).

أما عن جدة التي نزل في مينائها بحكم أنها بوابة مكة فلم يطل في وصفها، واكتفى بذكر أنها أقرب الموانئ إلى مكة،؟ وأنها غير مسوَّرة، وبها يستقبل الأدلاء الحجاج(٧٩).

ومن الجدير بالذكر أن الطريق التي سلكها بتس تكاد تتطابق مع

---

(٧٧) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٣.

Wolf, one thousand roads, p. 112.

(٧٨) عن التصوف في العصر العثماني انظر: توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، مطبعة الآداب، القاهرة، ١٩٤٦م.

(٧٩) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٤.

طريق رحلة القلصادي في القرن التاسع الهجري(٨٠)، غير أن معلومات بتس كانت أكثر تفصيلًا في وصف الطريق ونوادر ما صادفهم في الطريق.

مكة المكرمة:

- **وصف مكة:**

وصف فارتيما مكة بأنها ذات الشرف الباهر، وأنها مدينة رائعة الجمال، بناؤها منظَّم، ومنازلها جيدة مثل منازل إيطاليا، وسعر المنزل فيها يعادل ثلاثة أو أربعة آلاف من الدوكات(٨١). كما لم يكن يحيط مكة سور مثل القاهرة أو الإسكندرية، غير أن الجبال تقوم مقام الأسوار حيث تحيط بمكة من جميع الجهات(٨٢). وأن في جنوب مكة جبلين متقاربين كأنهما بوابة لمكة(٨٣). ويقترب وصف فارتيما من وصف ابن بطوطة(٨٤) الذي ذكر أن

---

(٨٠) خرج القلصادي من ميناء المناكب في جنوب الأندلس ومنه إلى وهران ثم تونس وجربة وطرابلس ومنها للإسكندرية ثم القاهرة برًّا ومنها للطور ثم ركبا السفن حتى ينبع ثم رابغ انظر: القلصادي (أبو الحسن علي الأندلسي ت ٨٩١هـ /١٤٨٦م)، رحلة القلصادي، تحقيق محمد أبو الأجفان، تونس، ١٩٧٨، ص ١٢٩-١٣١، ١٤٧؛ سماح عبد المنعم السلاوي، طرق الحج المصري في القرن العاشر الهجري / القرن السادس عشر الميلادي، ضمن بحوث الندوة العالمية الثامنة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية (القرن العاشر الهجري)، الرياض، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م، ص١٣.

(٨١) **الدوكة:** الاسم الذي أطلقه المؤرخون العثمانيون على فلورنسا، وقيل هو النقد الذهبي المضروب في البندقية قديمًا، وهي محرَّفة لكلمة دوكاتوه Ducat الإيطالية، وكان يزن بين عشرة إلى اثني عشر فرنكًا: سهيل صابان: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ٢٠٠٠م، ص ١١٥.

(٨٢) رحلات فارتيما، ص ٥١.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p.81.

(٨٣) رحلات فارتيما، ص ٥١.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p.82

(٨٤) رحلة ابن بطوطة، ص ٩٥.

مكةَ مدينةٌ مستطيلة متصلة البنيان تحفُّ بها الجبال من كل الجهات وإن زاد عليه بذكر الجبال محيطة بمكة بأسمائها، كما سمىٰ مداخل مكة الثلاثة من الشمال باب المعلَّىٰ، ومن الغرب باب الزاهر، ومن الجنوب باب السفل.

وكان فارتيما ينظر لمكة من منظور الكاثوليكي المتعصب، ومن ثم فقد فسَّر جفاف البقاع المحيطة بمكة بأن ذلك نوعًا من غضب الرب علىٰ هذه البقعة، حيث لا ينبت بها زرع ولا شجر، كما تعاني المدينة من نقص الماء، وأكَّد أن الحصول علىٰ الماء فيها مكلف جدًّا(٨٥).

أما بالنسبة لوصف بتس لمكةَ، فقد ذكر أنها تقع في وادٍ غير ذي زرع، وتبعد عن ساحل البحر تقريبًا بيوم، والأقرب للدقة أنها تقع وسط تلال صغيرة كثيرة؛ لذا فهي لا تحتاج لبوابات أو أسوار، ومبانيها كما سبق أن ذكرت عادية جدًّا فهي غير مهيأة لاستقبال الوافدين. كما لم يفت بتس الوصف الطبوغرافي للمناطق المحيطة بمكة، فذكر أن التلال تحيط بمكة ولعدة أميال وهي صغيرة متقاربة، وقد ارتقيت بعض هذه التلال بالقرب من مكة المكرمة، بحيث كان في إمكاني رؤية مداها عدة أميال. وهذه التلال جميعًا من صخور حجرية تميل للسواد، وتبدو علىٰ البُعد كأنها أكوام قش، لكنها جميعًا نحو مكة، وبعض هذه التلال يبلغ محيط الواحد منها نصف ميل(٨٦).

---

(٨٥) رغم اشتراك ابن بطوطة مع فارتيما في الحديث عن جفاف مكة فإن ابن بطوطة كان له رأي مختلف عن الأمر قال فيه: "ومكة شرفها الله كما أخبر الله في كتابه العزيز حاكيًا عن نبيه الخليل بوادٍ غير ذي زرع، ولكن سبقت لها الدعوة المباركة فكل طرفة تجلب إليها، وثمرات كل شيء تجيء لها، ولقد أكلت بها الفواكه، العنب، والتين، والخوخ، والرطب، ما لا نظير له في الدنيا".

انظر: رحلة ابن بطوطة، ص ٩٥.

(٨٦) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٧.

Foster W. (Editor), The Red Sea, p. 25.

- **اقتصاد مكة:**

كان من الأهمية بمكان أن يركز الرحَّالة الأوربي على البُعد الاقتصادي نظرًا لاعتقاد الأوربيين اعتقادًا جازمًا بأن الثراء الذي تتمتع به البلاد الإسلامية سبب صمودها أمام الغزو الصليبي الفاشل في القرنين ١٢و ١٣(٨٧)، ومن هنا حرص كلٌّ من فارتيما وبتس على تتبع مصادر الثروة في مكة والمدينة، ناهيك عن الماء ومصادره.

تحدَّث فارتيما عن اقتصاد مكة قائلًا: "وأن ما تحتاجه المدينة يأتي من أماكن بعيدة مثل القاهرة من خلال البحر الأحمر وميناء جدة، وكذلك من بلاد اليمن، كما تصل البضائع مكة من الهند وأثيوبيا وفارس، ومن هنا فقد كثرت البضائع في مكة حتى توافد عليها عدد كبير من أناس جمعوا بين الرغبة في الحج والتجارة"(٨٨). وعدَّد فارتيما أنواع المتاجر التي ترد مكة ومن بينها كميات كبيرة من البهار ترد من الهند، بجانب كل الأنواع التي ترد من أثيوبيا والبنغال، وأيضًا كميات كبيرة من الأقمشة القطنية والحريرية وعبر مكة "تتم تجارة مرور كبيرة في المجوهرات والبهارات بأنواعها المختلفة، والقطن بكميات كبيرة والشمع والمواد العطرية"(٨٩)، وينتشر التجار داخل المسجد الحرام تحت عقود المسجد ٤٠٠٠ أو ٥٠٠٠ تاجر من الرجال والنساء يبيعون مختلف أنواع العطور ومساحيق حفظ الأبدان (٩٠).

أما عن بتس، فقد ذكر أن ماء مكة وافر، إلا أن العشب فيها نادر فيما

---

(٨٧) سماح السلاوي، الجاليات الأجنبية في مصر، ص ١١٢.

(٨٨) رحلات فارتيما، ص ٥٢-٥٣.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p. 82.

(٨٩) رحلات فارتيما ص، ٥٣.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p. 82.

(٩٠) رحلات فارتيما، ص ٥٤.

خلا مواضع قليلة، وثمة أنواع مختلفة من الفاكهة الطيبة كالأعناب، والشمام، والبطيخ، والخيار، والقرع، وغيرها لكن هذه الفاكهة تُجلب من موضع على بُعد يومين أو ثلاثة، يسمى إذا لم تخنِّي الذاكرة حبش. والضأن يُجلب إلى هنا حيث يتم بيعه(٩١).

- **سكان مكة:**

لم يطل فارتيما الحديث عن سكان مكة، واكتفى بتحديد عدد مَنْ سكنها تقريبًا ٦٠٠٠ أسرة (٩٢).

أما بتس، فقد وصف سكان أم القرى بأنهم "بائسون، ونحيلون جدًّا، ويعتريهم الهزال، وهم داكنو البشرة"(٩٣). أما عن حرارة الطقس، فذكر أنها شديدة، والناس ينتقلون في الشوارع من جانب إلى جانب بحثًا عن الظل. والسكان خاصة الرجال ينامون عادة على أسطح المنازل تلمسًا لنسمات الهواء أو في الشوارع أمام منازلهم وبعضهم يضعون دكاكًا. وهم يرشون أرض الشارع بالماء قبل وضع فراشهم للنوم، أما بالنسبة لبتس فقد كان ينام في الهواء الطلق دون أي غطاء فوق سطح المنزل، ويتدثَّر بقطعة من الكتان المبلول التي تجف بعد قليل، وحين يستيقظ بالليل يبللها، ويتدثَّر بها من جديد(٩٤).

---

(٩١) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٨.

Foster W. (Editor), The Red Sea, p. 25

(٩٢) رحلات فارتيما، ص ٥١.

King (R.), The Pilgrimage to Mecca, p65.

(٩٣) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٧.

(٩٤) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٩.

- **مزارات خارج مكة:**

لم يتحدث فارتيما عن المزارات الواقعة خارج مكة، حيث كان في عجلة من أمره للفرار من القافلة التي جاء معها ليتوجَّه إلى اليمن. أما بتس فقد تحدَّث عن عدد من المزارات يسعى الحجاج لزيارتها خارج مكة ومن بينها غار حراء(٩٥) الذي ذكر عنه أنه يوجد فوق قمة أحد التلال كهف يسمونه حراء، ومعناه المبارك يقولون إن محمدًا –صلى الله عليه وسلم– كان معتادَ اللجوء إليه للتعبُّد والتأمل والصوم. وهم يعتقدون أنه في هذا الكهف تلقي الرسول –صلى الله عليه وسلم– جزءًا كبيرًا من القرآن الكريم بواسطة جبريل –عليه السلام– وقد دخلتُ الكهف ووجدته كهفًا عاديًّا غير مزين(٩٦). ونلحظ فيما كتب بتس عن غار حراء أن روايته تكاد تطابق ما تواتر في كتب السيرة٩٧. غير أنه لم يفته أن يقول: "هم يعتقدون" دلالة على عدم اعتقاده وكذب ما أظهر من الإسلام.

كما زار بتس صخرة مشقوقة تواتر أن صدر النبي قد شق عنده وهو صغير بيد الملائكة وعن ذلك يقول :"وخارج مكة المكرمة تقريبًا بنصف ميل يوجد تل شديد التحدر، وقد صنعوا له درجات للوصول لقمته التي يوجد عليها قبة تحت صخرة مشقوقة، يقولون إن محمدًا –صلى الله عليه وسلم– عندما كان في الرابعة من عمره حمله الملك جبريل ففتح صدره وأخرج منه مضغة سوداء تمثل الفساد أو خطايا البشر ثم أغلق صدره فعاد كما كان، ولم يشعر محمد –صلى الله عليه وسلم– أثناء هذه العملية بأي ألم، وقد تم هذا في موضع هذه الصخرة التي أقاموا عليها قبة. وقد ذهبتُ بنفسي إلى هذا المكان

(٩٥) غار حراء: هو كهف في جبل حراء بينه وبين مكة ثلاثة اميال على يسار الذاهب إلى منى. انظر ابن هشام، سيرة ابن هشام، ج١، ص ٢٤٦، حاشية ٤.

(٩٦) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٨.

(٩٧) انظر سيرة ابن هشام، ج١، ص ٢٠٥.

وصحبني كل رفاقي وقد صليت بضع ركعات كما صلوا" (٩٨).

كما زار بتس أثناء تواجده بمنىٰ صخرة مشقوقة من وسطها ويقولون إن هذا الشق ناتج عن أثر سكين إبراهيم الذي شق الحجر بدلًا منه رقبة ابنه إسماعيل بفضل توجيه الله ليده بعيدًا عن رقبة إسماعيل إنها لضربة قوية حقًّا(٩٩).

وصف المسجد الحرام:

- **المسجد:**

كان وصف فارتيما للمسجد مقتضبًا، حيث ذكر أنه في وسط مكة يوجد معبد جميل يشبه الكلوزيوم في روما إلا أنه غير مبنىٰ من الحجارة

---

(٩٨) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٩.

Wolf, One Thousand Road to Mecca, P. 115.

حادث شق صدر النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- ثابت في كتب الحديث الشريف والسيرة النبوية ومما قيل في ذلك "حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا حماد بن سلمة حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك أن رسول الله -صلىٰ الله عليه وسلم- أتاه جبريل -صلىٰ الله عليه وسلم- وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج القلب فاستخرج منه علقة فقال هذا حظ الشيطان منك ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلىٰ أمه يعني ظئره فقالوا إن محمدا قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال أنس وقد كنت أرىٰ أثر ذلك المخيط في صدره." انظر صحيح مسلم، ج١، دار طيبة، الرياض، ١٤٢٦هـ، حديث ١٦٢، ص٨٧؛ وقد ورد خبر ذلك عند ابن هشام انظر: ابن هشام (عبد الملك بن هشام الحميري ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م)، السيرة النبوية، ج١، تحقيق وضبط مصطفىٰ السقا وإبراهيم الإبياري و عبد الحفيظ شلبي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م، ص ١٧٣؛ يسري عبد الله زيدان و عبد الفتاح فتحي، خاتم النبيين، دار الهانئ للطباعة، القاهرة، ٢٠١٠م، ص٥٨-٥٩.

(٩٩) رحلة جوزيف بتس، ص ٦١.

الضخمة، وإنما من الطوب الأحمر، وله تسعون بابًا أو مائة باب، ذوات أقواس(١٠٠).

أما بتس فكان وصفه أكثر دقة وأوسع رقعة، حيث ذكر أن أبوابه تبلغ تقريبًا اثنين وأربعين بابًا(١٠١) وهو عدد غير كبير لأن الظروف أحيانًا تضطرهم لغلق بعضها(١٠٢)، وهو قريب الشبه من دار المقاصة في لندن، لكنه أوسع منه بعشر مرات. وكل أبوابه مفتوحة وتفضي لممرات مغطاة بالحصى ما عدا بعض الممرات التي رصفت بأحجار عريضة وهي الممرات المؤدية للكعبة المشرَّفة، والأروقة المحيطة بالصحن، حيث الكعبة المشرَّفة مرصوفة بأحجار عريضة جميلة ولها عقود مقنطرة، وعلى الجدران الداخلية

---

(١٠٠) رحلات فارتيما، ص ٥٣.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p. 83.

(١٠١) يبالغ بتس هنا في عدد الأبواب بينما ذكر ابن بطوطة أنها ١٩ بابًا فقط. انظر ابن بطوطة، ص ١٠٠،

وكلام ابن بطوطة هو الأصح حيث إن المسجد الحرام قد تم إعادة بنائه في العهد العثماني بأمر من السلطان سليم الثاني ٩٧٤-٩٨٢هـ (١٥٦٦-١٥٧٤م) وتم البناء في عهد ابنه مراد خان ٩٨٢-١٠٠٣هـ (١٥٧٤-١٥٩٤م)، وقد تم البناء عام ٩٨٤هـ (١٥٧٦م)، وبلغ عدد الأبواب ١٩ بابًا فقط. انظر: طه عبد القادر عمارة، تاريخ عمارة وأسماء أبواب المسجد الحرام حتى نهاية العصر العثماني، مركز أبحاث الحج، مكة، ب.ت.، ص ٧٤-٧٥.

(١٠٢) كان غلق بعض أبواب المسجد الحرام شيئًا مألوفًا خاصة في غير موسم الحج، ولم يكن بتس وحده هو من أدرك هذا الأمر لكن أدركه بعض الرحَّالة المسلمون؛ ففي سنة ٨٣٠هـ (١٤٢٦م) ورد مرسوم من القاهرة ينص على أن تسد أبواب المسجد الحرام بعد موسم الحج فيما عدا أربعة أبواب منها باب السلام، وباب العمارة، وباب إبراهيم، وباب الصفا. وعندما تضرر الناس روجع السلطان المملوكي في ذلك مما أدى إلى صدور أمر بفتح باب الزيادة وباب النبي ثم فتحت الأبواب جميعها في موسم الحج التالي. طه عبدالقادر عمارة، تاريخ عمارة وأسماء أبواب المسجد، ص ٨٢.

للأروقة توجد غرف صغيرة تدور مدار الأروقة، وقد أعدت هذه الغرف الصغيرة (الخلوات) للذين وهبوا حياتهم للقراءة والدراسة والتعبد، وهذه الطائفة تشبه إلى حد كبير طائفة الدراويش(١٠٣).

وعلى بُعد تقريبًا اثنتي عشرة خطوة من الكعبة يوجد مقام إبراهيم الذي بنى الكعبة، كما يقولون بأمر الله سبحانه، ويحيط بهذا المقام شبكة حديدية، وهو مغطًى بكسوة مزركشة جميلة، وهو مشيد كشواهد القبور المحدثة في بلادنا، ويحملق الناس في هذا المقام بحب(١٠٤).

- **الكعبة:**

وصف فارتيما الكعبة بأنها برج Tower مربع كل ضلع من أضلاعه من أربعة إلى ست خطوات. وقد غطى هذا المبنى بالحرير الأسود، وبه باب من الفضة الخالصة بارتفاع قامة الإنسان عن طريقه يمكن دخول الكعبة، وعلى جانبي الباب جرتان يقال إنهما مليئتان بالبلسم من إهداء السلطان. وعند كل ركن من أركان الكعبة يوجد حلقة كبيرة(١٠٥).

أفاض بتس في وصف الكعبة وقال: " تبلغ تقريبًا أربع وعشرين خطوة مربعة، وقد تم تثبيت حجر أسود في أحد أركان بيت الله وهو مطوق بسياج فضي، وفي كل وقت يتقدم الحجاج نحو الحجر ويقبلونه ثم يطوفون سبعة أشواط، ويصلُّون ركعتين، ويقولون إن هذا الحجر كان يُسمى الحجر

---

(١٠٣) رحلة جوزيف بتس، ص ٥. ولعل بتس يقصد هنا المجاورين الذين تركوا بلادهم وذهبوا لمكة للمجاورة، وقد أشار إليهم ابن بطوطة في رحلته وترجم لعدد منهم، انظر: رحلة ابن بطوطة، ج١، ص ١١١-١١٢.

(١٠٤) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٤-٥٥.

(١٠٥) رحلات فارتيما، ص ٥٤.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p. 83.

الأسعد ويعنى الأبيض ولكنه اسودَّ من خطايا البشر الذين يقبِّلونه فسُمِّى بالحجر الأسود. ولا يخلو المطاف من الطائفين حول الكعبة ليلًا أو نهارًا، وأنها قِبلة المسلمين في صلاتهم في مختلف بقاع الأرض. وبالرغم من دقة وصف بتس لبناء الكعبة فإنه أبى إلا أن يبث سمومه لبنى قومه، فردَّد فكرة خاطئة رسمها من سبقه من الأوربيين أن الكعبة وثن يعبده المسلمون(١٠٦).

كما ذكر أن الكعبة مكسوة بكسوة من الحرير الأسود وأفاض في وصف الكسوة، وأنها مزينة بنصوص من تعاليم الإسلام إلا أنه لم يتمكن من قراءتها. كما لم يفته الحديث عن سطح الكعبة والميزاب الموجود لتفريغ ما يسقط عليها من أمطار، وكيف يسعد زوار مكة بما يسقط من الميزاب من ماء بل هناك من يجمعه ويبيعه للزوار على سبيل التبرك(١٠٧).

كما تمكَّن بتس من دخول الكعبة(١٠٨) مرتين، ووصف محتوياتها غير أنه ردَّد عدة خرافات مثل: ادعائه أن من يحملق في الكعبة يصاب بالعمي وذكر أن "هذا يذكره المسلمون"، ومن ثم حملق ولم يحدث له مكروه، يريد

---

(١٠٦) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٧.

(١٠٧) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٢.

(١٠٨) كان مسموحًا بفتح الكعبة للناس لمشاهدتها من الداخل في أيام محددة منذ الجاهلية وعن ذلك قال الصباغ:"اعلم أن من عادات بني شيبة اختياريا أن الكعبة المشرفة كانت تفتح في الجاهلية يوم الاثنين والخميس، وفي صدر الإسلام يوم الجمعة والاثنين وفي أوقات أخر من أيام السنة، منها بكرة الثاني عشر من ربيع الأول، وفي بكرة ثاني عشر من رجب وثالث عشر ذي القعدة، وفي بعض أيام الموسم في الثمان الأول من ذي الحجة وفي لياليها. كذا في درر الفرائد. أما في زماننا فتفتح في أوقات من كل سنة فتوحات عامة لجميع الناس ست عشرة مرة ثمان للرجال وثمان للنساء". انظر: الصباغ (محمد بن أحمد بن سالم المكي، ت ١٣٢١هـ)، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام، تحقيق د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م، ص ٢٧٧.

أن يثبت فساد ما يعتقده المسلمون، كما روج لما يرتكبه العامة من حماقات مثل التزاحم للنيل من ماء غسيل الكعبة أو الحصول على قطع من المكانس التي تكنس بها الكعبة(١٠٩).

وبصفة عامة ما ذكره بتس يتطابق إلى حدٍ كبيرٍ مع وصف الكعبة وكسوتها ومحتوياتها من الداخل وبابها وزينته، وكذلك في أمر السماح بزيارة الكعبة من الداخل، وقد أكد ابن بطوطة(١١٠) على إمكانية هذا الأمر.

ونخلص من ذلك إلى أن وصف بتس للكعبة تفوق بمراحل على وصف فارتيما غير أنه حشاه بالافتراءات والخرافات التي ساقها سوْق الحقائق.

- **زمزم:**

اهتم فارتيما بوصف زمزم وقال: إنه على بعد عشر خطوات أو اثنتي عشرة خطوة من الكعبة يوجد برج - يشبه إحدى مصليات كنائسنا أو كاتدرائياتنا- ذا أبواب ثلاثة أو أربعة داخله بئر رافعة، وماؤها مالح قليلًا. وعند هذه البئر يقف ستة رجال أو ثمانية لسحب المياه للناس. وعندما ينتهي الناس من الطواف يقولون: "بسم الله الرحمن الرحيم، اللهم اغفر لنا"، ويقومون بسحب الماء من زمزم ويصبون ثلاثة جرادل على كل شخص، فيستحم الجميع. "ويقولون إنهم بهذه الوسيلة يتخلصون من خطاياهم التي تبقي هذا الموضع"(١١١).

أما بتس فقد حدد موقع زمزم بأنه على مسافة قصيرة من مقام إبراهيم

---

(١٠٩) رحلة جوزيف بتس، ص ٥١-٥٣.

(١١٠) رحلة ابن بطوطة، ص ٩٦-٩٧.

(١١١) رحلات فارتيما، ص ٥٥.

تجاه اليد اليسرى، ويعتبر المسلمون أن ماء زمزم مقدس ويقدرونه تقديرًا فائقًا. وفي شهر رمضان يفطرون به يقولون إنه حلو كالحليب، أما بالنسبة لي فلم أرَ أنه يختلف عن أي ماء آخر إلا أنه يميل إلى الملوحة شيئًا ما، ويشرب منه الحجاج بكميات هائلة عند وصولهم مكة المكرمة أول مرة ليس فقط ليطهروا أنفسهم، وإنما لتنفض أجسامهم كل الخطايا، وليخلصوا أرواحهم من كل الآثام. كما يحرصون على الإفطار عليه في شهر رمضان. مع الحرص على الاغتسال به لكنه ذكر أمرًا غريبًا وهو أنهم لا يغسلون به سوى الجزء الأعلى من الجسم فقط، وهذا بالطبع غير صحيح. كما أكَّد أن هذا الماء كثيرًا ما يحمله الحجاج معهم لأحبائهم في بلادهم(١١٢).

- **حمام الحرم:**

ذكر فارتيما أنه وجد في طريق مكة من ١٥٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠ حمامة، وأكد أن المسلمين يعتقدون أن هذا الحمام من سلالة الحمام الذي تحدث للنبي -صلى الله عليه وسلم- وأن هذا الحمام كان من روح القدس، أن الحمام يطير في كل أنحاء مكة ويسعد بذلك الحجاج، وأن الحبوب تباع في الحوانيت لتقدم للحمام، ولا يستطيع أي أحد أن يعتدى عليها خشية خراب مكة، بالرغم من أن هذا الحمام يلحق بالحرم كثيرًا من الضرر(١١٣).

كما لفت هذا الحمام أيضًا نظر بتس فقال: "إن في مكة آلاف من الحمام

---

(١١٢) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٧،٥٨.

أجاز الشيخ ابن باز -رحمه الله- الاستنجاء بماء زمزم وجاء في نص الفتوى " هو ماء طهور طيب يستحب الشرب منه، ولا حرج في الوضوء منه، ولا حرج في غسل الثياب منه، ولا حرج في الاستنجاء إذا دعت الحاجة إلى ذلك" عبد العزيز بن باز، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، ج١٠، جمع محمد بن سعد الشويعر، تنسيق موقع بن باز، ص ٢٧.

(١١٣) رحلات فارتيما، ص ٥٨.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p. 86-87.

الأزرق لا يجرؤ أحد على صيده أو إيذائه، وبعضه أليف لدرجة أنه يتناول قطعة لحم من يدك. وقد قمت بنفسي كثيرًا بإطعام كثير منه في المنزل الذي أقيم به، وهذه الحمائم تأتي أسراب كبيرة إلى الحرم، حيث يقدم لها الحجاج الطعام، فثمة أناس فقراء من أهل مكة يأتون للحج حاملين معهم نوعًا من الأواني مصنوعة من السمار مليئة بالحبوب، ويتوسلون للحجاج طالبين منهم شراء بعض الحبوب لإطعام حمامات النبي، وقد سمعت أن هذه الحمامات لا تطير أبدًا فوق الكعبة(١١٤) كما لو كانت تعلم أنها بيت الله الحرام، لكنني أعتقد أن ذلك خطأ كبير، فقد رأيت هذه الحمائم تطير في غالب الأحيان فوق الكعبة"(١١٥).

أدلة الحجاج(١١٦):

أثناء تواجد فارتيما في المدينة اصطحبهم عدد من المرشدين خلال فترة تواجدهم في الحرم النبوي، ولم يسمح لهم بالزيارة بغير مرشدين(١١٧). وبعد خروج قافلة الحج الشامي من المدينة سار مع القافلة مجموعة من الأدلاء ليرشدوهم إلى الطريق خشية الضياع في الصحراء القاحلة بين مكة والمدينة،

---

(١١٤) قال ابن بطوطة كلام مثل ذلك حول الحمام:"ومن عجائبها (الكعبة) أن حمام مكة على كثرته وسواه من الطير لا ينزل عليها ولا يعلوها في الطيران وتجد الحمام يطير على أعلى الحرم كله فإذا حاذى الكعبة الشريفة عرج عنها الى إحدى الجهات ولم يعلوها ويقال إنه لا ينزل عليها طائر إلا إذا كان به مرض فإما أن يموت لحينه أو يبرأ من مرضه" انظر رحلة ابن بطوطة، ص ٩٨.

(١١٥) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٧.

(١١٦) دليل الحجاج، هو شخص يقوم بإرشاد الحجاج للطريقة السليمة لأداء المناسك ويعرف في مكة بالمطوِّف، انظر:

Wolf, One Thousands Roads to Mecca, p113, note (*)

(١١٧) رحلات فارتيما، ص ٤٣.

وقد ذكر أنه كان معهم خرائط وبوصلات تساعدهم في عملهم(١١٨). غير أن فارتيما لم يوضح هل هؤلاء الأدلاء مجرد أدلاء طريق أم كان لهم دور في تعريف الحجاج بالمشاعر في مكة بعد الوصول كما حدث مع بتس حين وصل مكة بعد ذلك.

أما عن أدلة الحجاج عند بتس، ففي جدة استقبلت قافلة الحج المغربي، حيث رحَّب بهم من في الميناء، وعرفوا أنهم حجاج فوفروا لهم على الفور أدلاء أو المطوفين(١١٩) وقد قدموا من مكة بغرض إرشاد الحجاج للطريق إلى مكة وتعريفهم بشعائر الحج الصحيحة، وقد أكَّد بتس أن معظم الحجاج جاهلين بالمناسك، ومن ثم فوجود الأدلاء كان من الضرورة بمكان(١٢٠). ويبدو أنه كان مألوفًا وجود أدلاء من أهل مكة يقومون بهذا الأمر مقابل أجر لمن أراد، وقد صادف ذلك السبتي في رحلة حجِّه(١٢١)، حيث قال: "فوافينا مكة شرفها الله ضحاء يوم السبت، حامدين الله تعالى على تسهيل المسير، وتيسير العسير، فتلقانا أهل مكة وأطفالها متعلقين بالناس ليعلموهم المناسك ويهدوهم المسالك، قد درّب صبيانهم على ذلك، وحفظوا من الأدعية والأذكار ما يحسن هناك".

شعائر الحج:

اهتم كل من فارتيما وبتس بوصف شعائر حج المسلمين كما مارساه خلال رحلتيهما كالتالي:

---

(١١٨) رحلا فارتيما، ص ٤٧.

(119) Foster W. (Editor), The Read Sea, p. 22, note2.

(١٢٠) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٤.

Wolf, one thousand roads, p. 113, Foster W. (Editor), The Read Sea, p.22.

(١٢١) السبتي، ملء العيبة،،ص ٨٠

الإحرام للحج[١٢٢]:

لم يكن لفارتيما وبتس أن يحكما إظهار الإسلام إلا بالتشبه بالمسلمين في أداء شعائر الحج وأولها الإحرام بالتطهر ولبس غير المخيط من الثياب. وقد ذكر فارتيما أن قافلة الحج الشامي قد أحرمت عند بئر قبل دخول المدينة المنورة، حيث مرت قافلة الحج الشامي، بالمدينة المنورة في طريقها إلي مكة، وطريقة الإحرام كما شاهدها فارتيما وقام بها مثل باقي الحجاج، نزع الثياب العادية للحاج وارتداء ملابس الإحرام المكوَّنة من قطع من الكتان النظيف مع الحرص علىٰ الاغتسال قبل ارتداء الإحرام[١٢٣]. وكان فارتيما صادقًا في شكل الإحرام لكنه لم يكن دقيقًا في تحديد موقع إحرام قافلة الحج الشامي بجانب أن زيارة قبر الرسول -صلىٰ الله عليه وسلم- ليس من شعائر الحج، وعليه فمن الواجب أن إحرام قافلة الحج الشامي يكون عند ميقات أهل المدينة، بحكم قدومهم مكة من جهتها، وهو ذو الحليفة التي تبعد عن مكة ٤٥٠كم من جهة الشمال[١٢٤]، والتي أحرم منها ابن بطوطة كما ذكر في رحلته[١٢٥].

---

(١٢٢) **الإحرام:** هو نية الدخول في الحج أو العمرة وهو أول أركان الحج، ويجب أن يكون من الميقات المحدد، ويستحب له أن يقلم أظافره ويقص شاربه وينتف إبطيه ويحلق شعر عانته، مع التجرد من الثياب المخيط والاغتسال والتطيب، وارتداء رداء وإزار يستحب فيهما البياض، ويستحب أن يكون الإحرام بعد الفريضة، ثم ينوي هل هو محرم للحج أم للعمرة. انظر البخاري (محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م)، صحيح البخاري، حديث ١٥٤٢، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، ص٣٠٠. ابن قدامة (عبد الرحمن بن محمد بن أحمد المقدسي ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٤م)، المغني، ج٣، دار الغد العربي، القاهرة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م؛ ص ٤٩٠-٥٢٥؛ وأيضًا، سعيد بن علىٰ القحطاني، مناسك الحج والعمرة، الرياض، ١٤٣١هـ - ٢٠٠٩م، ص ص ١٩٠-٢٠٣.

(١٢٣) رحلات فارتيما، ص ٤٢.

(١٢٤) ابن قدامة، المغني، ج٣، ص ٤٧٤؛ سيد سابق، فقه السنة، ج ١، ص ٤٥٥.

(١٢٥) رحلات ابن بطوطة، ج١، ص ٩٧.

أما عن بتس فقد أحرمت قافلة الحج التي جاء فيها إلى مكة من رابغ(١٢٦) حيث يقول: "وصلنا إلى رابغ ولبس كل الحجاج – فيما عدا النساء – ملابس الإحرام. لقد خلعوا ملابسهم المعتادة ولبس كل واحد منهم قطعتين من القماش القطني الأبيض، إحدى القطعتين تلف حول الوسط وتغطي الجزء السفلي من الأعقاب، والقطعة الثانية تغطي الجزء العلوي من الجسد عدا الرأس، ويلبس الحاج في قدمه خفًّا غير مخيط، ولا يغطي الجزء العلوي من القدم عدا الأصابع، وعلى هذا النحو يظلون حتى يصلوا إلى مكة. وتؤثر الحرارة في ظهورهم وأذرعهم ورؤوسهم(١٢٧)، حتى لو تعرض أحدهم للتلف فإن الشريعة لا تسمح له بأن يضع فوق رأسه غطاء، أو فوق بدنه لباسًا آخر غير الإحرام حتى يتحلل من إحرامه بعد ذبح أضحيته وتقديمها للفقراء، وطوال فترة الإحرام التي تستغرق سبعة أيام يحرم عليهم قص أظافرهم أو قتل قملة أو برغوث، ففي هذا سفك للدماء، بل إنهم يجدون حرجًا في نقل برغوث أو القملة من موضع في الجسد إلى موضع آخر، وأثناء لبس الإحرام لا يفسقون ولا يفجرون، ويضبطون ألسنتهم ولا يستخدمون إلا التعبيرات المهذبة، وهم لا يحلقون شعورهم في هذه الفترة أيضًا"(١٢٨).

---

(١٢٦) رابغ ميناء صغير في منتصف الطريق بين ينبع وجدة ويبعد ١٢٤ ميلاً شمال غرب مكة. انظر: Foster W. (Editor), The Read Sea and Adjacent Countries, London, 1949, p. 21, note 2.

(١٢٧) يتفق مع بتس في ذلك الورثيلاني ويقول:"أصابنا الحر حتى انسلخ الجلد عن الرأس والظهر، فما ارعوى أحد بذلك، ولا رجع وانزجر بما هنالك لعل الله أن ينظر إلينا بعين الرحمة" الورثيلاني (الحسين بن محمد)، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ضمن كتاب " المختار من الرحلات الحجازية" اختصار محمد بن حسن بن عقيل، دار الأندلس، جدة، ١٤٢١هـ – ٢٠٠م، ص ٣٦٥

(١٢٨) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٤.

Wolf, one thousand roads, p. 112-113, Peter, the Hajj,p.117; Foster W. (Editor), The Read Sea, p. 21.

ومن الجدير بالذكر أن رابغ هي ميقات الحج المصري البحري، ومنها أحرم العبدري[١٢٩] عام ٦٨٩هـ (١٢٩٠م)، والقلصادي [١٣٠] عام ٨٥١هـ (١٤٤٧م). وكان بتس دقيقًا في وصفه للإحرام من حيث الميقات المكاني وشكل وتركيبة ثوب الإحرام للرجال دون النساء وأخلاق الحج التزامًا بقوله تعالى:" **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**"[١٣١] إلا أن في كلامه كثير من المبالغة فيما يتعلق بالاحتراز في عدم قتل القمل والبراغيث وهذا الأمر فيه اختلاف، وقد أجاز عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- قتله[١٣٢]، وكذلك الإمام أحمد بن حنبل -رضي الله عنه-[١٣٣]. أيضًا زعم بتس أن الشريعة تمنع أن يغطي الحاج رأسه حتى لو تلف، وهذا أيضًا غير صحيح؛ فقد أراد الله بالحجاج اليسر ولم يرد بهم العسر، وقد غطَّى الحجاج حين حج الورثيلاني[١٣٤] رؤوسهم من شدة الحر، وتورع عن ذلك جماعة ثم غطوا خشية الهلاك، لكن لا نكذبه فيما روى فربما يزيد عامة الناس من احترازهم خشية الوقوع فيما يفسد إحرامهم، بعد أن قطعوا الطريق الطويل من بلادهم إلى البقاع المقدسة بغية الحج والعمرة.

طواف القدوم:

يقول فارتيما إنه في الرابع والعشرين من مايو يبدأ الناس قبل طلوع

---

(١٢٩) العبدري(أبي عبد الله محمد بن علي ت ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)، رحلة العبدري، تحقيق د.علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، دمشق، ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م، ص ٣٤٩.

(١٣٠) القلصادي، رحلة القلصادي، ص ١٣٠.

(١٣١) القرآن الكريم، سورة البقرة، آية ١٩٧.

(١٣٢) سيد سابق، فقه السنة، ج٣، ص ٤٦٥.

(١٣٣) ابن قدامة، ج٣، ص ٥٢٩.

(١٣٤) نزهة أنظار، ص ٣٦٦.

الشمس في الطواف حول الكعبة سبعة أشواط وهم في هذه الأثناء يتمسحون بأركانها ويقبِّلونها(١٣٥).

وجاء وصف بتس أكثر وضوحًا ودقة، حيث ذكر أنه عند وصولهم إلى مكة توضئوا عند حوض قرب الحرم، وبعد الوضوء دخلوا المسجد الحرام من باب السلام، وقام الدليل أو المطوف بقراءة عدد من الأدعية ردَّدها الحجاج خلفه، وبعدها بدأوا في الطواف حول الكعبة سبعة أشواط، ثم صلوا ركعتين (١٣٦).

السعي بين الصفا والمروة(١٣٧):

لم يتحدث فارتيما عن السعي بين الصفا والمروة. لكن بتس أفسح لهذه الشعيرة وذكر أنه بعد طواف القدوم خرج مع الحجاج للسعي بين الصفا والمروة، وأنهم كانوا يهرولون تارة ويمشون تارة، وقد سخر من هذه الشعيرة ووصف المسلمين بالكائنات البائسة(١٣٨).

---

(١٣٥) رحلات فارتيما، ص ٥٥.

(١٣٦) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٥.

Wolf, One Thousand Road to mecca, p113.

(١٣٧) هو من أركان الحج لقوله تعالى: "إن الصفا والمروة من شعائر الله"(البقرة –١٥٨).، ولقول النبي –صلى الله عليه وسلم–:"اسعوا فإن الله كتب عليكم السعي" انظر: سعيد بن علي القحطاني، مناسك الحج والعمرة، ص ٣١٠.

(١٣٨) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٥.

للسعي بين الصفا والمروة شروط منها: أن يكون بعد طواف، وأن يكون سبعة أشواط تبدأ من الصفا وتنتهي بالمروة، ويكون السعي في الطريق الممتد بين الجبلين، كما فعل النبي – صلى الله عليه وسلم– ويجوز السعي راكبًا أو ماشيًا، ويستحب الرمل أو الهرولة بين الميلين الأخضرين، وهو ما شاهده بتس لكنه لم يفسره. انظر السيد سابق، فقه السنة، ج١، ص ٤٩١-٤٩٣.

Wolf, One Thousands Roads to Mecca, p. 114.

الوقوف بعرفات[١٣٩]:

لم يطل فارتيما الحديث عن الوقوف بعرفات، ولم يقل أكثر من أنه بعد الشرب من ماء زمزم: "إنهم يتجهون إلى الوادي عند الجبل ويمكثون هناك يومين وليلة"[١٤٠]. بالطبع جانب فارتيما الصواب فالوقوف بعرفة لا يزيد عن اليوم من فجر أو زوال يوم التاسع من ذي الحجة حتى فجر العاشر[١٤١]. كما تحدث فارتيما عن خطبة عرفة ومقدار خشوع خطيب هذا اليوم، وكثرة بكائه أثناء الخطبة، وربطه بين الحج وفداء إبراهيم -عليه السلام- بولده إسماعيل، غير أن فارتيما خلط كثيرًا بين الأمور على نحو أكَّد عدم فهمه لما يعتقده المسلمون في هذا الشأن مثل أنه شبه علماء الدين المسلمين بالكهنة عند المسيحيين، [١٤٢] وهذا بالطبع غير صحيح حيث لا يوجد كهنوت في الإسلام، فالصلة مستمرة بين العبد وربه ولا حاجة له بمن يصلها من البشر. كما خلط بين إسحق وإسماعيل -عليهما السلام-.

وتحدث بتس عن الوقوف بعرفة، وذكر أنه وفي اليوم الثامن بعد الشهرين – من مرور رمضان- يلبسون ملابس الإحرام ويذهبون إلى جبل عرفات الذي سُمى بهذا الاسم لأن آدم -كما يقولون- تعرف فيه على حواء مرة أخرى. وجبل عرفات ليس ضخمًا ضخامة تجعله يستوعب الأعداد الهائلة من الحجاج الذين لا يقلون كما يقال عن سبعين ألفًا كل عام، وفي

---

(١٣٩) الوقوف بعرفة هو ركن الحج الثاني وبدونه لا يصح الحج. انظر سعيد بن على القحطاني، مناسك الحج والعمرة، ص ٣٠٧.

(١٤٠) رحلات فارتيما، ص ٥٥.

(١٤١) ويرى الحنابلة أنه من فجر التاسع حتى فجر العاشر، انظر: سيد سابق، فقه السنة، ج١، ص ٤٩٥.

(١٤٢) رحلات فارتيما، ص ٥٦-٥٧.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p. 85.

اليوم التاسع من شهر ذي الحجة يعوض الله هذا العدد بملائكة من عنده ينزلون على هيئة بشر إن كان عدد الحجاج أقل من العدد آنف الذكر. ويبدو أن بتس لم يفهم شعائر الحج جيدًا، ومن ثم أثَّرت فيه الكهانة المسيحية فاعتقد أن خطيب عرفة يمنح الحجاج لقب حاج، لكنه صدق في أن لقب الحاج "لقب يظل الواحد منهم يحمله بفخر حتى مماته"(١٤٣).

المبيت بمِنَى(١٤٤):

لم يذكر فارتيما شيئًا عن المبيت بمِنَى، أما بتس فجاء فيما دوَّن "وبعد تلقيهم لقب الحاج ينفخ في البوق إيذانًا بمغادرة عرفة، وبعد ميلين أو ثلاثة في طريق العودة يبيتون ليلة لكن كل واحد منهم يجمع قبل الصلاة وقبل وصولهم لمستراحهم هذا تسعًا وأربعين حصاة صغيرة الواحدة منها في حجم البندقة(١٤٥). وفي الصباح التالي يتحركون إلى مِنى وهو المكان الذي ذهب إليه إبراهيم الخليل ليضحي بابنه إسحق ففداه الله بذبح سمين. وهناك يضحون وتبعد منى عن مكة بحوالي ميلين أو ثلاثة. وفي مِنى ينصِبُ الحجاج خيامَهم فثمة سهل واسع، ويقضون يوم الأضحى(١٤٦).

النحر(١٤٧):

يستحب النحر للحاج المفرد، ويجب على القارن والمتمتع ومن ترك

---

(١٤٣) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٨-٥٩.

(١٤٤) المبيت بمِنى من واجبات الحج ويكون في أيام التشريق يومين للمتعجل وثلاثة للمتأخر. انظر: سعيد بن علي القحطاني، ناسك الحج والعمرة، ص ٣١٢-٣١٣.

(١٤٥) رحلة جوزيف بتس، ص ٦٠.

(١٤٦) رحلة جوزيف بتس، ص ٦١.

(١٤٧) النحر من واجبات الحج ويكون بعد جمرة العقبة. انظر سعيد بن علي القحطاني، ناسك الحج والعمرة، ص ٥٧٧.

واجبًا من واجبات الحج، ومن ارتكب محظورًا، ومن جنىٰ علىٰ الحرم بصيد أو قطع شجر، ووقت النحر يكون في اليوم العاشر من ذي الحجة وأيام التشريق(١٤٨). غير أن فارتيما عند تناوله تجاوز الصواب وذكر أنهم ينحرون عند عرفة(١٤٩). وعن النحر يقول: "ما من رجل أو امرأة إلا وينحر رأسين أو ثلاثة علىٰ الأقل، بل إن بعضهم ينحر أربعة وبعضهم ينحر ستة، حتىٰ إنىٰ أعتقد صادقًا أنه قد تم ذبح أكثر من ٣٠٠٠٠ رأس من الغنم في اليوم الأول، بعد أن وليت وجوهها صوب المشرق. ويقدم كل ناحر ما نحره إلىٰ الفقراء، حبًّا لله وتقربًا إليه" وبعد النحر يتدافع الفقراء للحصول علىٰ اللحم وشوائه(١٥٠). ولعل جهل بتس بالشعائر وحكمتها جعلته لا يفهم سبب تعدد الهدي، الراجع لترك واجب أو ارتكاب محظور كما قدمنا.

أما عن بتس فروىٰ أنه في الصباح التالي لعرفة يتحرك الحجاج إلىٰ مِنىٰ، وهو المكان الذي ذهب إليه إبراهيم الخليل ليضحي بابنه إسحق ففداه الله بذبح سمين، وهناك يضحون(١٥١). ومن حديث بتس عن النحر يصر علىٰ أن الذبيح هو إسحق حسبما يعتقد المسيحيون، ولم تجد السنوات الطوال التي قضاها بتس في بلاد المسلمين في تصحيح ذلك عنده أبدًا.

رمي الجمار(١٥٢):

هو من واجبات الحج، وعدد الحصىٰ التىٰ يرمىٰ بها، سبعون حصاة أو

(١٤٨) لمزيد من التفاصيل راجع: سيد سابق فقه السنة، ج١، ص ٥٠٨-٥٠٩.

(١٤٩) رحلات فارتيما، ص ٥٥.

(١٥٠) رحلات فارتيما، ص ٥٦.

(١٥١) رحلة جوزيف بتس، ص ٦٠.

(١٥٢) رمي الجمار من واجبات الحج مرتبًا جمرة العقبة يوم النحر قبل الزوال وبعده، ورمي الجمرات الثلاث أيام التشريق بعد زوال الشمس. انظر سعيد بن علىٰ القحطاني، مناسك الحج والعمرة، ص ٣١٤.

تسع وأربعون(١٥٣). وعنها ذكر فارتيما أنه خارج مكة يوجد جدار ارتفاعه أربع قامات تحته كمية كبيرة من الحصى، وهذه الأحجار قذف بها الحجاج هذا المكان إحياء لذكرى قذف إبراهيم -عليه السلام- للشيطان بالحصى حينما وسوس الشيطان لإسحاق بعدم إطاعة أمر أبيه امتثالًا لأمر الله تعالى خشية الذبح(١٥٤)، نلاحظ أن فارتيما قد ذكر أن الذبيح هو إسحق وهذا غير صحيح بل هو إسماعيل(١٥٥)، وقد رسخ ذلك في اعتقادات المسيحيين ومن قبلهم اليهود، بسبب ذكر التوراة أن الذبيح إسحق، وأن ذلك كان بفلسطين وليس بمكة، ومن ثم لم يكن من المستغرب أن يردد فارتيما هذا الأمر(١٥٦).

أما رمي الجمار عند بتس فقد روى أن كل حاج يذهب في اليوم الأول من المبيت بمِنى ليرمي سبع جمرات على العمود الأول، ويقصدون بهذا رجم

---

(١٥٣) توزع الجمار كالتالي: جمرة العقبة يوم النحر وعددها سبع حصيات، وإحدى وعشرون يوم الحادي عشر موزعة على الجمرات الثلاث كل منها سبعًا، وإحدى وعشرون يرمي بها في اليوم الثاني عشر، وإحدى وعشرون في اليوم الثالث عشر، فيكون عدد الحصى سبعين حصاة، وإذا اقتصر على الرمي في الأيام الثلاثة ولم يرم في اليوم الثالث عشر جاز ويكون الحصى الذي يرميه الحاج تسعًا وأربعين. انظر سيد سابق: فقه السنة، ج١، ص ٥٠٠-٥٠٣.

(١٥٤) رحلات فارتيما، ص ٥٧.

Wolfe, One thousand Roads to Mecca, p. 86.

(١٥٥) عالج ابن كثير -رحمه الله- قضية الذبيح قائلاً "الذبيح إسماعيل، لأنه كان هو المقيم بمكة وإسحاق لا نعلم أنه قدمها في حال صغره، والله أعلم. وهذا هو الظاهر من القرآن لأنه ذكر قصة الذبيح ثم قال بعده (وبشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين) (الصافات - ١١٢) ومن جعله حالاً فقد تكلف، ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات.... وقد قال بأنه إسحاق طائفة كثيرة من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه - والله أعلم - من كعب الأحبار، أو من صحف أهل الكتاب ". ابن كثير(أبي الفداء إسماعيل، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م): قصص الأنبياء، دار الأنوار المحمدية، القاهرة، د.ت، ص ١٦٣-١٦٤.

(١٥٦) الكتاب المقدس، سفر التكوين، آية ٢٢، ط. القاهرة، ١٩٨٨م.

الشيطان وأفعاله، لأنهم يقولون أثناء الرجم "إني أرجم الشيطان وحزبه" وثمة عمودان آخر متقاربان يرجمون أحدهما في اليوم الثاني، والآخر في اليوم الثالث، قابلني حاج فَكِهٌ وقال :"لا بد أن ترجم بسرعة من فضلك، لأنني قد فقأت عيني الشيطان لتوي"(١٥٧).

طواف الإفاضة(١٥٨):

لم يتحدث فارتيما عن طواف الإفاضة، وكذا بتس لكنه ذكر شيئًا في معنىٰ ذلك دون أن يدرك أنه من الأركان حين قال: "وخلال الأيام الثلاثة التي يقضونها في مِنىٰ يفكر الواحد منهم إذا لم يكن واهنًا في زيارة الكعبة مرة واحدة علىٰ الأقل... وبعد الطواف والصلاة يعودون ثانية إلىٰ مِنىٰ "(١٥٩).

طواف الوداع(١٦٠):

لم يطف فارتيما طواف الوداع بل هرب إلىٰ جدة وتخفَّىٰ في ثوب الفقراء، ومكث في مسجدها مدة أربعة عشر يومًا حتىٰ تمكَّن من الإبحار إلىٰ اليمن(١٦١). أما بتس فقد روىٰ أنه في المساء السابق لمغادرة مكة المكرمة لا

---

(١٥٧) رحلة جوزيف بتس، ص ٦١.

(١٥٨) طواف الإفاضة هو الركن الثالث للحج ويفضل أن يكون بعد الرمي والنحر والحلق. سعيد بن علىٰ القحطاني، ناسك الحج والعمرة، ص ٣٠٧.

(١٥٩) رحلة جوزيف بتس، ص ٦٢.

(١٦٠) – طواف الوداع من واجبات الحج لقول النبي صلىٰ الله عليه وسلم: "لا ينفرن أحدكم حتىٰ يكون آخر عهده بالبيت"، انظر سعيد بن علىٰ القحطاني، مناسك الحج والعمرة، ص ٣١٦.

(١٦١) رحلات فارتيما، ص ٦١.

لم يسهب فارتيما كثيرًا في وصف جدة وذكر أنها مدينة غير مسورة لكن منازلها جميلة مزدحمة بالسكان والرواد من المسلمين، إلا أن اليهود والمسيحيين كان محظورًا عليهم الوصول إليها، ومما لاحظه كثرة الفقراء الذين اتخذوا من مسجد جدة مأوىٰ لهم وبينهم اندسَّ حتىٰ تمكن من الرحيل لليمن.

بد من طواف الوداع، فيدخل المرء من باب السلام فيطوف قدر ما يستطيع وبعض الناس يطوفون حتىٰ يعتريهم التعب. وتفيض عيونهم بالدمع لأنهم يودعون بيت الله، ويبدون حقيقة غير راغبين في مفارقته ويشربون من ماء زمزم حتىٰ الامتلاء، ويتراجعون إلىٰ باب الوداع، ووجوههم صوب بيت الله، وباب الوداع هذا مواجه لباب السلام، وعند خروجهم منه يعقدون أيديهم تجاه بيت الله، فمن غير اللائق أن يولوا ظهورهم للبيت عند الوداع، ويظلوا في حالة بكاء وهم يدعون ويتوسلون إلىٰ الله حتىٰ يصلوا بيوتهم.

المدينة المنورة:

يعتبر فارتيما أول أوربي مسيحي – حسبما نمىٰ إلىٰ علمنا – يصل إلىٰ المدينة المنورة، وقد حرص أشد الحرص علىٰ تصوير الأوضاع الموجودة في المدينة كما هي؛ حتىٰ تكون دليلًا لقومه في المستقبل وللاستفادة مما كتب فيما يخططون لتطويق العالم الإسلامي. ونظرًا لقدوم فارتيما للحج مع قافلة الحج الشامي فقد كانت المدينة في طريقهم ومن ثم قام بزيارة المدينة أولًا قبل الحج في مكة، وحين وصل فارتيما ومن معه للمسجد النبوي فرض عليهم عدد من الأدلاء داخل المسجد وقال عنهم :"كنا مجبرين علىٰ أن يصطحبنا بعض الأشخاص" أما عن المسجد النبوي فقد ذكر أن طوله يبلغ مائة خطوة طولًا وثمانين خطوة عرضًا ، ويوجد بابان في كل جهة من جهاته الثلاث أما جهته الرابعة فلا أبواب فيها، وسقفه مقوس وبه أكثر من ٤٠٠ عمود مطلية باللون الأبيض وبه حوالي ٣٠٠ مصباح، وعند رأس المسجد ناحية اليمين يوجد برج مربع يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه خمس خطوات، وقد غطىٰ بالحرير وعلىٰ بعد خطوتين حاجز معدني مشبك جميل، يقف الناس إزاءه لرؤية هذا البرج، وفي الجانب الأيسر من هذا الحاجز يوجد باب صغير يفضي إلىٰ البرج، ويوجد في هذا البرج باب صغير آخر وعند أحد البابين

يوجد تقريبًا عشرون كتابًا وعند الجانب الآخر خمسة وعشرون كتابًا وتتناول هذه الكتب جميعًا حياة محمد -صلىٰ الله عليه وسلم- ووصايا الدين الإسلامي ، ويوجد إلىٰ الداخل من هذا الباب الثاني قبر محمد وعلي وأبي بكر وعثمان وعمر وفاطمة، وقد كان محمد زعيمًا عربيًّا أما علىٰ -رضي الله عنه- فهو زوج فاطمة ابنة الرسول -صلىٰ لله عليه وسلم- أما أبو بكر الصديق فيمكن وصفه بأنه كاردينال وأنه كان يريد أن يكون بابا، أما عثمان -رضي الله عنه- فقد كان أحد صحابته، وكذلك كان عمر، وهذه الكتب التي أشرنا إليها تتناول كل صحابته(١٦٢).

ومن غرائب ما روىٰ حول زيارته للمدينة رغبة قائد القافلة في رؤية جسد النبي الكريم في قبره، وقد ذكر فارتيما أنه عرض علىٰ المسئول عن حراسة قبره -صلىٰ الله عليه وسلم- ثلاثة آلاف دينار أشرفي فرفض رفضًا قاطعًا، وفي النهاية ذكر له أن النبي غير موجود في قبره لكنه ارتفع إلىٰ السماء وربما اتحد مع الله(١٦٣).

ومن وصف فارتيما للمسجد النبوي يبدو أن وصفه كان صحيحًا إلا ما ذكره من خرافات، مثل أن أبي بكر كان يريد أن يكون مثل الكاردينال عند المسيحيين، وهذا مخالف للواقع، فلا كهنوت في الإسلام كما ذكرنا فيما سلف، كما أنه لا يجاور قبر النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- غير قبر أبي بكر وعمر، أما قبور عثمان فاطمة وعلىٰ - رضي الله عنهم - فلا توجد في المسجد النبوي.

ناهيك عن خرافة ما رواه من رغبة أمير القافلة وهو مسلم في فتح قبر النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- من خلال رشوة، وهو ما رفضه حرَّاس القبر

---

(١٦٢) رحلات فارتيما، ص ٤٣، ٤٤.

Peter, the Hajj, p. 142-143.

(١٦٣) رحلات فارتيما، ص ٤٦.

الطاهر، إن كان للرواية نصيب من الحقيقة.

أما بتس فقد قام بزيارة المدينة بعد رحلة الحج وذكر أنها ليست إلا بلدة بائسة يحيطها سور وبها مسجد كبير لكنه لا يقارن بالحرم المكي. وفي أحد أركانه مبنى مساحته حوالي أربع عشرة أو خمس عشرة خطوة مربَّعة به نوافذ ضخمة مغطاة بشباك نحاسي، وداخل هذا المبنى الصغير بعض المصابيح والزينات وهو مقنطر وقد قيل إنه يوجد ما لا يقل عن ثلاثة آلاف مصباح حول قبر الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو قول غير صحيح، إذ لا يوجد أكثر من مائة. إنني أتحدث عما أعرفه ورويته بعيني وفي الوسط يوجد قبر محمد (صلى الله عليه وسلم)، وثمة ستارة حريرية تحيط بقبره (صلى الله عليه وسلم) وهي ستارة غير غالية الثمن وغير جميلة، ولا يسمح للحجاج بالدخول إلى هذه الغرفة فلا أحد يدخلها إلا أغوات للإشراف على المكان وتنظيفه وإيقاد المصابيح، وكل ما يتاح للحجاج هو أن يتعلقوا بالشبابيك وأن ينظروا من خلال الشباك النحاسي ويتوسلوا بهذا النبي بحماس فائق ووجد شديد. وقد أخرج سيدي منديله الحريري من صدره بينما كان واقفًا يدعو أمام قبر الرسول(١٦٤).

وبالإضافة لقبر الرسول –صلى الله عليه وسلم– هناك قبور خلفائه، وقبر آخر قد تم إعداده لعيسى ابن مريم –عليه السلام– عندما يعود للدنيا مرة أخرى، فالمسلمون يعتقدون أن المسيح سيعود مرة أخرى بلحمه ويظل أربعين عامًا قبل أن تقوم الساعة ليؤكد صدق الدين الإسلامي ويقولون إن مخلصنا لم يصلب وإنما الذي صلب هو شخص شبيهه.

ومما كتبه بتس عن المدينة نلحظ دقة ما كتب وما سمع بشأن عيسى –عليه السلام– مما تداوله زوار المسجد بالرغم من أن أساس الاعتقاد بدفن

(١٦٤) رحلة جوزيف بتس، ص ٧٢–٧٣.

عيسىٰ حين ينزلُ إلىٰ الأرض ثانية بجوار قبر النبي وخلفائه حديث ضعيف وجد في سنن الترمذي(١٦٥)، لكن بتس ذكر ما سمع.

ويتم تزويد المدينة المنورة بالمؤن من الحبشة علىٰ الساحل الآخر للبحر الأحمر محملة بالقمح وغير ذلك من الضروريات، وهي سفن غريبة علىٰ بتس لم يرَ لها مثيلًا، ذلك أن أشرعتها من حصير كالحصير الذي يستخدمونه في بيوتهم ومساجدهم(١٦٦).

مصادر المعلومات التي جاءت في الرحلتين:

هناك كثير من المعلومات تلقاها فارتيما بشكل ذاتي من خلال المشاهدة والممارسة، فيصفها بشكل مباشر حتىٰ إنه ذكر في مواضع أنه حرص علىٰ مشاهدة كل شيء بعينيه ومن بينها الروضة الشريفة حيث دفن النبي -صلىٰ الله عليه وسلم-(١٦٧). وهناك معلومات سمع عنها فيقول عنها: "إنهم يقولون" ومن بينها: شخص باني الكعبة وجميع المسلمين يسلمون بأن باني الكعبة هو إبراهيم -عليه السلام- بناء علىٰ ما ثبت من القرآن والسنة وكتب الحديث، أما فارتيما كإنسان أوربي لا يؤمن بذلك ومن ثم يقول إنهم يقولون :"إن الكعبة التي طافوا حولها هي أول بيت وضع للناس، وأن إبراهيم الخليل هو بانيها"(١٦٨).

أما بتس فقد حصل علىٰ معلومة ما دوّن من خلال المشاهدة والممارسة فيصفها بشكل مباشر، وهناك معلومات سمع عنها فيقول عنها إنهم يقولون

---

(١٦٥) الترمذي (محمد بن عيسىٰ بن سورة، ت ٢٧٩هـ - ٨٩٢م)، جامع الترمذي، حديث ٣٦١٧، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ب.ت.، ص ٥٦٨.

(١٦٦) رحلة جوزيف بتس، ص ٧٢.

(١٦٧) رحلات فارتيما، ص ٣٠٠.

(١٦٨) رحلات فارتيما، ص ٥٥.

مثل إن موضع البئر هو الموضع الذي طرحت فيه هاجر ابنها إسماعيل، وقد سمعتهم يروون القصة تمامًا كما وردت في الفصل الواحد والعشرين من سِفر التكوين، ويقولون إن بئر زمزم نبت في موضع ركلة قدم الطفل إسماعيل (١٦٩).

نقد المشاهدات:

أعجب فارتيما بالروائح الزكية التي كانت تملأ المسجد الحرام أثناء رحلة حجه وعن ذلك يقول :"الحق أقول لكم لأنه من الصعب أن أصف لكم روعة الروائح التي شممتها في المعبد. أنها تظهر كرائحة مشبعة بالمسك زاخرة بأكثر العطور إنعاشًا وإبهاجًا"(١٧٠). ومن الأمور التي انتقدها فارتيما كثرة عدد الفقراء في مناطق المشاعر، حتى ظن أن كثيرًا من هؤلاء الفقراء لم يذهبوا للحج من أجل غفران ذنوبهم بقدر ذهابهم لإسكات نداء بطونهم الخاوية(١٧١).

أما بتس فلم يعجبه طعم ماء زمزم وقال :" وفي شهر رمضان يفطرون به يقولون إنه حلو كالحليب، أما بالنسبة لي فلم أرَ أنه يختلف عن أي ماء آخر إلا أنه يميل إلى الملوحة شيئًا ما"(١٧٢).

كما انتقد ما شاع بين المسلمين حول قبر حواء، حيث ذكر إن المسلمين يقولون "إن حواء مدفونة في جدة، ويصلى المسلمون الذين يصلون مكة عن طريق البحر الأحمر ركعتين عند قبرها. ولم أملك إلا الابتسام عند سماعي حكايتهم السخيفة، فقد لاحظت أنهم وضعوا حجرًا عند رأسها وحجرًا

(١٦٩) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٨.
(١٧٠) رحلات فارتيما، ص ٥٤.؛ وأيضًا انظر الكتاب المقدس، سفر التكوين، فصل ٢١.
(١٧١) رحلات فارتيما، ص ٥٦.
(١٧٢) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٧.

آخر عند قدميها وبين الحجرين مسافة طويلة تقترب من رمية سهم، وفي الوسط مصلى صغير حيث يصلي الحجاج"(١٧٣). وقد ذكر ابن جبير(١٧٤) وجود هذا القبر وقال الله أعلم بذلك لأنه لم يصل إليه من الآثار ما يؤكد هذا الزعم(١٧٥).

رأيها في شعائر ومعتقدات المسلمين:

بسبب الخلفية الكاثوليكية المتعصبة لفارتيما فقد وصف شعائر المسلمين بأنها باطلة ومما قال: "لقد تعبنا من هذه الأمور وتلك الأباطيل التي بدت من محمد" والغريب أنه ساق أكاذيب ليدعم رأيه ويقوى حجته لدى القارئ الأوربي مثل استنكاره اعتقاد بعض الدراويش أن نورًا ينزل من

---

(١٧٣) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٩.

(١٧٤) رحلة ابن جبير، ص ٥٣.

(١٧٥) مقبرة أمنا حواء أو قبر حواء هو موقع أثري كان يقع في وسط مدينة جدة، وبالتحديد في حي العمارية وسبب التسمية بهذا الاسم يعود إلى اعتقاد المسلمين بأن حواء توفيت ودفنت في ذلك الموقع من مدينة جدة، وهو أيضا أحد مصادر تسمية مدينة "جدة" نسبة إلى كلمة "جَدة" (بمعنى والدة الأب أو الأم). وينسب سكان المدينة التسمية لأم البشر حواء التي يقولون إنها دفنت في هذه المدينة التي نزلت إليها من الجنة بينما نزل جدنا آدم في الهند والتقيا عند جبل عرفات ودفنت هي في جدة. و هذه إحدى الآراء الذي ذكرها ابن كثير في كتابه البداية والنهاية. تم إغلاق الموقع عن طريق طمره بالإسمنت على إثر قرار من هيئة الأمر بالمعروف في عام ١٩٧٥، على خلفية صلاة بعض الحجاج فيها. انظر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة
http://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%82%D8%A8%D8%B1%D8%A9_%D8%A3%D9%85%D9%86%D8%A7_%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%A1

السماء على قبر النبي، وأنه لم يرَ هذا النور ولا أحد من رفاقه وادعى أن حراس قبر النبي يصنعون أضواء ليعتقد الناس أنها تنزل من السماء(١٧٦).

أما بتس فقد اعتنق الإسلام في الظاهر نتيجة ضغوط سيِّده عليه، وبالتالي لم يكن مؤمنًا بما يعتقده المسلمون ومن هنا استنكر كثيرًا من الأمور التي يؤمنون بها إيمانًا جازمًا ومنها: سخريته من عواطف المسلمين أثناء تأدية شعائر الحج حين قال "ولا أملك إلا أن أعجب من الكائنات البائسة التي يبدو عليهم التأثر الشديد والعاطفة الجياشة وهم يؤدون هذه المناسك، ولم أستطع إلا بالكاد أن كبح دموعي من انهمار عند رؤية حماسهم الأعمى والوثني". كما استنكر الحقيقة التاريخية التي يسلم بها المسلمون وهي أن من بنى الكعبة إبراهيم –عليه السلام– (١٧٧).

غير أنه أعجب كثيرًا باجتماع المسلمين في عرفة وقال:" لقد كان مشهدًا يخلب اللب حقًّا أن ترى هذه الآلاف المؤلَّفة في لباس التواضع والتجرد من ملذات الدنيا برؤوسهم العارية، وقد بللت الدموع وجناتهم، وأن تسمع تضرعاتهم طالبين الغفران والصفح لبدء حياة جديدة، وتستمر هذه التضرعات وتلك الابتهالات طوال أربع ساعات أو خمس أو حتى يحين ميعاد صلاة العشاء أي بعد الغروب بحوالي نصف ساعة. وأنه لأمر يدعو للأسف أن نقارن بالخلافات الكثيرة بين المسيحيين(١٧٨).

كما أعجب بتس بحرص الحجاج على استغلال كل وقتهم في مكة

---

(١٧٦) رحلة فارتيما، ص ٤٦.

(١٧٧) رحلة جوزيف بتس، ص ٤٤.

(١٧٨) رحلة جوزيف بتس، ص ٦٠.

المكرمة في العبادة، فلم يكتفوا بالواجبات المفروضة وإنما راحوا يقضون كل وقت فراغهم في الحرم يطوفون حول الكعبة"(١٧٩).

تصحيح معلومات مغلوطة:

صحح فارتيما عددًا من المعلومات الخاطئة في الذهنية الأوربية عن المسلمين ونبيهم ومن بينها:

ما أشيع في أوربا أن جسد النبي -صلىٰ الله عليه وسلم- معلقًا في الهــواء بمدينة مكة المكرمة كذابون يستحقون التوبيخ، فقد رأيت قبره -صلىٰ الله عليه وسلم- في المدينة(١٨٠) وقال تعليقًا علىٰ هذه الخرافة "ويجب أن تعرف أنني أقول الحق أنه لا يوجد حديد أو صلب أو مغناطيس أو أي جبل علىٰ نطاق أربعة أميال"(١٨١).

كما صحح بتس عددًا من المعلومات الخاطئة في الذهنية الأوربية عن المسلمين ونبيهم، وأشار إلىٰ أن ما يقوله هو ما شاهده وما يعرفه(١٨٢)، ومن بينها: قول بتس :"إنىٰ قرأت أخيرًا ترجمة إنجليزية للقرآن الكريم ذكر مترجمها في مقدمته أنه من غير المسموح به للعامة من المسلمين قراءة القرآن، وأن عليهم أن يعيشوا حتىٰ مماتهم لا يعرفون إلا ما يقوله علماؤهم، وهو قول أرفضه جملة وتفصيلًا، فقراءة القرآن متاحة للجميع، بل وينظرون بتوقير لكل من يحسن قراءته، والقضية عندنا هي هل يحسن المرء القراءة أم

(١٧٩) رحلة جوزيف بتس، ص ٥٤.
(١٨٠) رحلات فارتيما، ص ٤٣.
(١٨١) رحلات فارتيما، ص ٤٧.
(182) Pailin (A.D.), British views on religion and religions, p370.

لا؟ والمسلم يدفع ثمانية دولارات أو عشرة مقابل نسخة من القرآن مع العلم أن دولارهم يساوى شلنين وثلاثة بنسات"(١٨٣).

وصحح أيضًا ما اعتقده بعض الأوربيين من أن كفن الرسول (صلى الله عليه وسلم) موجود بسقف المسجد بفعل جذب حجر مغناطيسي له. فصحح بتس ذلك قائلاً: "لكن صدقني أنها قصة كاذبة. فعندما نظرت من خلال الشباك النحاسي فقد رأيت أن الستائر التي تغطي القبر لا تصل إلى منتصف المسافة من الأرض إلى السقف أو حتى العقود المقنطرة؛ لذا فمن غير الممكن أن يكون كفنه -صلى الله عليه وسلم- معلقا بالسقف. ولم أسمع أحدًا من المسلمين يقول ذلك أو شيئًا قريبًا منه(١٨٤).

(١٨٣) رحلة جوزيف بتس، ص ٦٦.

Pailin (A.D.), British views on religion and religions, p370.

(١٨٤) رحلة جوزيف بتس، ص ٧٢.

Pailin (A.D.), British views on religion and religions, p370.

الخـــاتمـــة

بدا لنا بعد ما تقدم من المقارنة بين الرحلتين الكثير من أوجه الشبه أهمها أنهما: أوربيان مسيحيان، تعلما العربية، ادعيا الإسلام، قاما برحلة حج تحت ستار أنهما مسلمين، أحكما التنكر بتعلم العربية، ودوَّنا أخبار رحلة حجهما الزائفة، وتميزت كتابتهما بأنها كانت دقيقة إلى حد كبير فيما يتعلق بوصف الطريق الذي سلكه كل منهما، كما رصدا بدقة أحوال مكة والمدينة خاصة الطبوغرافية والسكانية والاقتصادية وخاصة الأخيرة، كما اعتنيا بالماء ومصادره وتنوعها على قلتها، كما وصفا شعائر حج المسلمين، كما اهتما بذكر كثير من الظواهر الأنثروبولوجية التي شاهدوها في الطريق أو في مكة والمدينة ومن ثم قدما صورة حية لطريقة حياة سكان مكة والمدينة خلال زمن زيارتهما، وما تخلل حياة هؤلاء السكان من بعض الخرافات والعادات والتقاليد. كما صححا للأوربيين عددًا من الأخطاء المتعلقة بالمسلمين، غير أنهما لم يستطيعا كبح جماح حقدهما على الإسلام والمسلمين فبدا مما دوَّنا هذا الحقد الدفين، كما اعتمدا في جل ما كتبا على ما شاهدا بأعينهم، كما يوضع الرجلان في سلة المستكشفين الأوربيين، وهاتان الرحلتان تلقيان أضواء كاشفة على تطلع الأوربيين إبان فترة الرحلتين لاستكشاف ما جهلوه من أرض الإسلام، وخاصة بلاد الحجاز، حيث الحرمان الشريفان وهي المعلومات التي وظفت فيما بعد خلال فترة الاستعمار الأوربي البغيض لقطاع كبير من العالم الإسلامي في بدايات العصور الحديثة، وبدون قصد كان لهاتين الرحلتين دور في تسجيل عدد من الظواهر الاجتماعية سادت بلاد الحجاز آنذاك.

أما عن أوجه الاختلاف فهي كثيرة:

أولا: أن فارتيما كان حرًّا حال رحلته، بينما كان بتس عبدًا لسيِّده الجزائري.

ثانيًا: جنسية فارتيما إيطالية وعمل لصالح ملك البرتغال، أما بتس فكان إنجليزيًّا.

ثالثًا: جاء فارتيما للشرق جاسوسًا لاستكشاف بلاد المسلمين من الداخل ورصد طرقها وثرواتها وسكانها في إطار حملة البرتغال لتطويق العالم الإسلامي وضرب اقتصاده بمباركة البابوية كنتيجة مباشرة لفشل الحملات الصليبية على الشرق في القرنين ٦-٧هـ (١٢-١٣م) وما تبعها من محاولات يائسة، أما بتس فقد جاء للحج رغمًا عنه تابعًا لسيده.

رابعًا: كانت رحلة فارتيما في بدايات القرن السادس عشر حينما كانت الحجاز تابعة لدولة المماليك في مصر، بينما جاءت رحلة بتس في الربع الأخير من القرن السابع عشر في عصر السيادة العثمانية.

خامسًا: سلك فارتيما الطريق البري للوصول إلى مكة مع قافلة الحج الشامي، بينما وصل بتس لمكة مع قافلة الحج المغربي عبر البحر المتوسط ومصر والبحر الأحمر.

سادسًا: ما دوَّنه فارتيما عن مكة أقل بكثير مما دوَّن بتس بحكم أن رحلة فارتيما كانت جزءًا من رحلة طويلة نحو بلاد الهند عبر مصر والشام والحجاز وفارس، ومن ثم كانت روايته تتسم بالاقتضاب وقلة التفاصيل أحيانًا، بخلاف بتس الذي خصصت رحلته بالكامل للحج وبالتالي كان لديه رقعة أوسع لتدوين ملاحظاته سواء عن الطريق أو مكان الحج او شعائره.

سابعًا: تعلم فارتيما العربية في أوربا ربما في إحدى مدارس اسبانيا، بينما تعلمها بتس في الجزائر حال أسره.

ثامنًا: قام بتس بالحديث عن كل شعائر الحج بينما أهمل فارتيما العديد منها مثل السعي بين الصفا والمروة وطواف الوداع.

تاسعًا: عاد بتس للجزائر التي قدم منها من نفس طريق ذهابه إلى مكة، بينما واصل فارتيما الطريق لليمن ومنها إلى فارس ثم الهند حيث المحطات البرتغالية حديثة التكوين آنذاك.

عاشرًا: دوَّن فارتيما رحلته كجزء من مهمة التجسس الكبيرة التي خرج فيها ممولًا من ملك البرتغال لكشف عورات بلاد المسلمين، بينما دوَّن بتس رحلته حين عاد إلى بلاده بعد فترة العبودية في الجزائر، وجاء التدوين بناء على رغبة إنجليزية في التعرف عن قرب عن مناطق المقدسات الإسلامية.

وبناء على هذه المقارنة نخلص إلى أن رحلتَي فارتيما وبتس من أهم مصادر التأريخ لمكة والمدينة والحجاز في الفترة الانتقالية بين العصور الوسطى والحديثة.

خريطة رقم (١)
طريق الحج الشامي – مسار رحلة فارتيما من دمشق إلى مكة

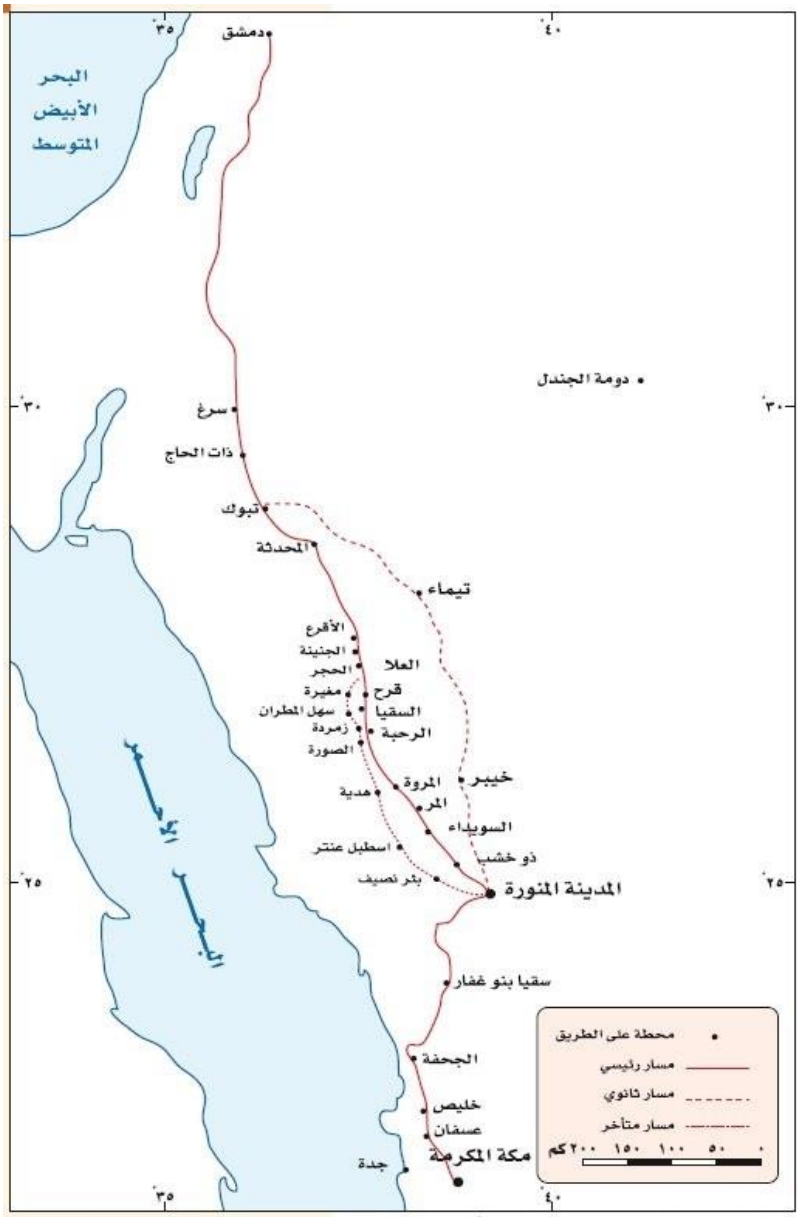

خريطة : توضح طريق الحج الشامي(*)

(*) المصدر: دار القوافل للنشر.

خريطة رقم (٢)
طريق الحج المصري – مسار رحلة بتس

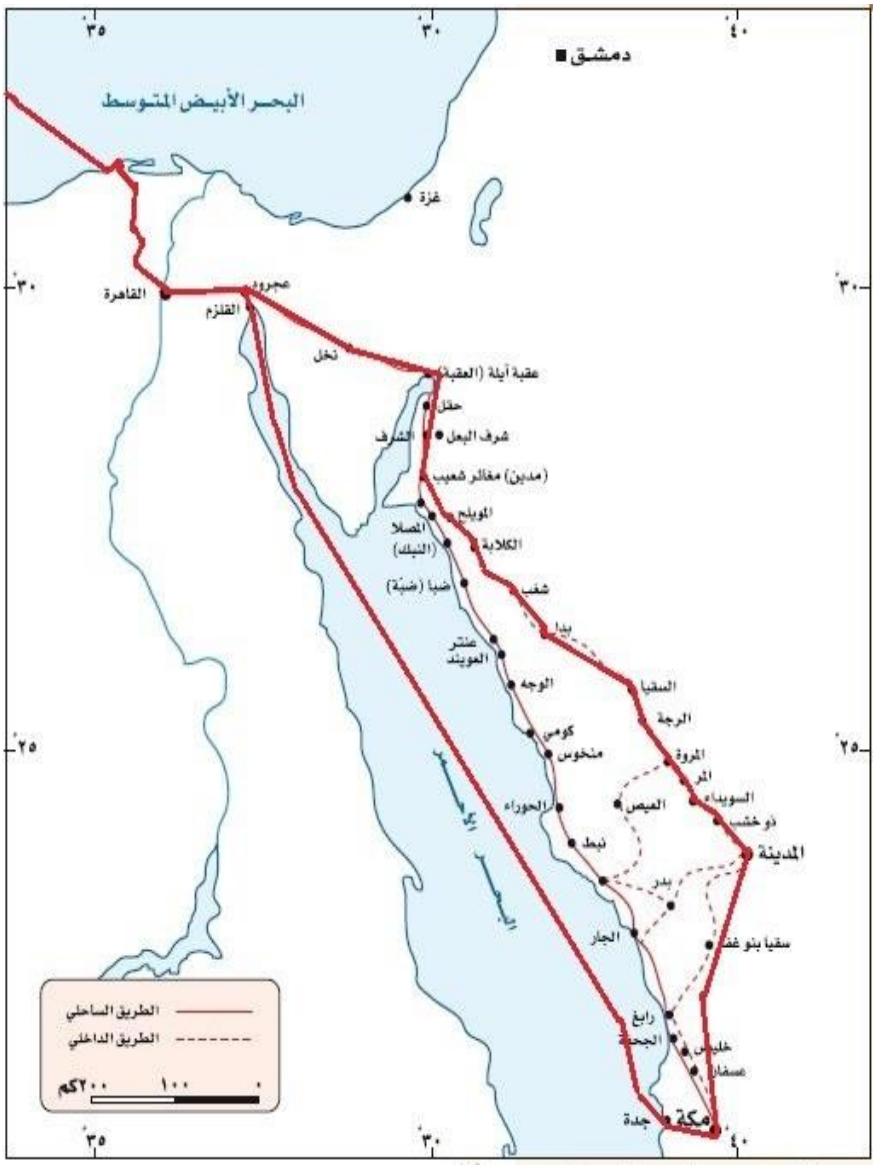

خريطة : توضح طريق الحج المصري(*)

(*) المصدر: دار القوافل للنشر.

قائمة المصادر والمراجع

أولًا- المصادر العربية والمعربة:

- ابن إياس (محمد بن أحمد، ت ٧٣٢هـ / ١٥٤٢م)، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج٥ ، دار النشر فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٩٧٥م.
- البخاري (محمد بن إسماعيل ت ٢٥٦هـ / ٨٧٠م)، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
- ابن بطوطة(محمد بن عبد الله بن محمد اللواتي ت ٧٩٩هـ / ١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة (تحفة النظار في غرائب الأمصار)، ج١، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٢٢هـ.
- الترمذي (محمد بن عيسى بن سورة، ت ٢٧٩هـ – ٨٩٢م)، جامع الترمذي، حديث ٣٦١٧، بيت الأفكار الدولية، الرياض، ب.ت.
- ابن تغري بردي (جمال الدين أبي المحاسن ت ٨٧٤هـ / م)، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج٧، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٨.
- جوزيف بتس، رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)، ترجمة د. عبد الرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٥م.
- خير الدين بربا روسا، مذكرات خير الدين باربا روسا، ترجمة د.محمد دراج، شركة الأصالة ، الجزائر، ٢٠١٠م.
- الدواداري (ابن أيبك، ت٧١٣هـ- ١٣١٣م) كنز الدرر وجامع الغرر، ج٨، تحقيق ألرخ هرمان، المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، ١٩٧١م.
- السبتي (محمد بن عمر بن رشيد الفهري ت ٧٢١هـ / ١٣٢١م): ملء العيبة بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى مكة وطيبة، تحقيق د. محمد الحبيب بن الخواجة، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م.
- الصباغ (محمد بن احمد بن سالم المكي، ت ١٣٢١هـ)، تحصيل المرام في أخبار البيت الحرام والمشاعر العظام ومكة والحرم وولاتها الفخام، تحقيق د. عبدالملك بن عبد الله بن دهيش، مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م
- العبدري (أبي عبد الله محمد بن علي ت ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م)، رحلة العبدري، تحقيق د.علي إبراهيم كردي، دار سعد الدين، دمشق، ١٤٢٦هـ –٢٠٠٥م.
- العيدروس (عبد الله بن شيخ بن عبد الله)، النور السافر في أعيان القرن العاشر، تحقيق

د.أحمد حالو ومحمود الأرناؤوط وأكرم البوشي، دار صادر بيروت، ٢٠٠١م، ص ٣٣٩.
- فاسكو داجاما، يوميات فاسكو داجاما، وتقرير رحلة دوز سانتوس، ترجمة د. عبدالرحمن الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥م.
- ابن قدامة (عبد الرحمن بن محمد بن أحمد المقدسي ت ٦٨٢هـ / ١٢٨٤م)، المغني، ج٣، دار الغد العربي، القاهرة، ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.
- القلصادي (أبو الحسن علي الأندلسي ت ٨٩١هـ /١٤٨٦م) ، رحلة القلصادي ، تحقيق محمد أبو الأجفان ، تونس ، ١٩٧٨.
- ابن كثير(أبي الفداء إسماعيل، ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م): قصص الأنبياء، دار الأنوار المحمدية، القاهرة، د.ت.
- المقريزي (أحمد بن علي، ت ٨٤٥هـ – ١٤٤٢م)، السلوك في معرفة دول الملوك، ج١، ق٣، تحقيق د. محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية، القاهرة.
- مجهول، سيرة الظاهر بيبرس، ج١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م.
- مسلم (ابن الحجاج القشيري النيسابوري، ت ٢٦١هـ / ٨٧٥م)، صحيح مسلم، ج١، دار طيبة، الرياض، ١٤٢٦هـ.
- الورثيلاني (الحسين بن محمد)، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، ضمن كتاب " المختار من الرحلات الحجازية" اختصار محمد بن حسن بن عقيل، دار الأندلس، جدة، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.
- ابن هشام (عبد الملك بن هشام الحميري ت ٢١٨هـ / ٨٣٣م)، السيرة النبوية، ج١، تحقيق وضبط مصطفى السقى وإبراهيم الإبياري وعبد الحفيظ شلبي، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٢م.
- هورخرونيه (ك. سنوك)، مكة المكرمة ، ج١، ترجمة على عودة الشيوخ، دارة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م.

ثانيًا: المصادر الأجنبية

- Ernoul Chronique d' Ernoul et Bernard le Tresorier ed.Mas Laterie Paris1971.
- Varthema (Ludovico) The Travels of Ludovico di Varthema trans by J. W. Jones London 1863.
- Wolf M One thousand Roads to Mecca New York 1997.

ثالثًا: المراجع العربية

- إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٩٨٨
- أحمد بن زيني دحلان، تاريخ أشراف الحجاز، تحقيق محمد أمين توفيق، دار الساقي بيروت، ١٩٩٣.
- بسام العسلي، خير الدين بربروس والجهاد في البحر ١٤٧٠-١٥٤٧م، دار النفائس بيروت، ب.ت.
- توفيق الطويل، التصوف في مصر إبان العصر العثماني، مطبعة الآداب، القاهرة، ١٩٤٦م.
- حسين مؤنس، ابن بطوطة ورحلاته تحقيق دراسة تحليل، دار المعارف، القاهرة، ب. ت.
- حياة بنت عبد الله الكلابي، النقوش الإسلامية على طريق الحج الشامي بشمال غرب المملكة العربية السعودية، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م.
- خير الدين الزركلي، الأعلام، ج٨، بيروت ، دار العلم للملايين، ٢٠٠٢م.
- ستيفن رنسيمان، الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، بيروت، ١٩٩٣.
- سعيد عاشور ، أوربا في العصور الوسطى ، ج١، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة، ١٩٨٣م.
- --------، الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٩٦م
- --------، الحركة الصليبية،جزءان، القاهرة، ٢٠١٠م.
- سعيد بن علي القحطاني، مناسك الحج والعمرة، الرياض، ١٤٣١هـ – ٢٠٠٩م.
- شوقي عطا الله الجمل، عبد الله عبد الرازق، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، مكتبة الانجلو المصري، القاهرة، ب.ت.
- طه عبد القادر عمارة، تاريخ عمارة وأسماء أبواب المسجد الحرام حتى نهاية العصر العثماني، مركز أبحاث الحج، مكة ، ب.ت.
- عبد الحميد البطريق وسليمان نوار، التاريخ الأوربي الحديث، دار الفكر العربي، ١٩٩٥.
- عز تلو يوسف بك آصاف، تاريخ سلاطين بني عثمان، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥م
- فاروق عمر فوزي، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان الأردن، ١٩٩٨م.
- محمد فوزي رحيل، نهاية الصليبيين فتح عكا، دار عين للبحوث والدراسات الإنسانية، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- محمد محمود السرياني ومعراج نواب مرزا، مكة المكرمة في عيون غير المسلمين دراسة في تقييم أهداف وانطباعات ومعارف الرحالة النصارى عن العاصمة المقدسة، الجمعية الجغرافية الكويتية، الكويت، العدد ٣٠٧، ١٤٢٦هـ / ١٤٠٥م.

- محمد مؤنس عوض، صلاح الدين الأيوبي بين التاريخ والأسطورة، دار عين للبحوث، القاهرة، ٢٠٠٨م.
- هايد، تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج٤، ترجمة أحمد محمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.
- يسري عبد الله زيدان و عبد الفتاح فتحي ، خاتم النبيين، دار الهانئ للطباعة، القاهرة، ٢٠١٠م.

رابعًا: المراجع الأجنبية:

- Michael (W.) One thousand roads to Mecca : ten centuries of travelers writing about the Muslim pilgrimage new York 1997.
- Peters (F. E)The Hajj: The Muslim Pilgrimage to Mecca and the Holy Places Princeton university 1994.
- Foster W. (Editor) The Read Sea and Adjacent Countries London 1949.

خامسًا: الرسائل العربية:

- أميرة مصطفى يوسف: أرناط حاكم أنطاكية والكرك من ١١٥٣- ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة كلية التربية للبنات بجدة عام ١٩٨٤م.
- سماح عبد المنعم السلاوي، الجاليات الأجنبية في مصر المملوكية، رسالة ماجستير، جامعة الزقازيق، ٢٠٠٣م
- سهيل صابان : المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ٢٠٠٠م.
- محمد طه صلاح البكري، الحجاز ٨٥٩-٩٢٣هـ/ ١٤٥٤-١٥١٧م، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- محمود رزق محمود: العلاقات بين أرناط أمير حصن الكرك وصلاح الدين الأيوبي حتى معركة حطين ١١٨٧م، رسالة ماجستير غير منشورة كلية الآداب جامعة عين شمس عام ١٩٧٣م.

خامسًا: البحوث العربية:

- سماح عبد المنعم السلاوي، طرق الحج المصري في القرن العاشر الهجري / القرن السادس عشر الميلادي، ضمن بحوث الندوة العالمية الثامنة لدراسات تاريخ الجزيرة العربية (القرن العاشر الهجري)، الرياض، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م.
- عبد العزيز رمضان، صورة الإسلام في نبوءة ميثودس المجهول، المجلة التاريخية المصرية،

مجلد ٤٤، مايو ٢٠٠٦م.
- فائز علي بخيت، المماليك الجراكسة في مواجهة الحصار الصليبي على مصر، مجلة كلية العلوم الإسلامية، جامعة الموصل، العدد ١٣ ١٣٤٣هـ - ٢٠١٣م.
- فكتور الكك، العلاقات الثقافية بين المسلمين والفرنج في العصور الوسطى، مجلة التفاهم، العدد ٤٢، وزارة الأوقاف العمانية، مسقط، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.
- محمد فوزي رحيل، صورة الإسلام في التاريخ الكبير لمتى الباريسي، مجلة التربية، العدد ١٧٥، الدوحة، ٢٠٠١م.
- مؤيد محمود المشهداني، أوضاع الجزائر خلال الحكم العثماني ١٥١٨-١٨٣٠م، مجلة الدراسات التاريخية والحضارية، جامعة تكريت، مجلد ٥، العدد ١٦، ٢٠١٣م.

سادسًا: البحوث الأجنبية:

- Attiya (H. M) Knowledge of Arabic in the Crusader States in the twelfth and thirteen centuries in Journal of Medieval history vol. 25:3 1999.
- Beckingham (C.F) the date of Pittis's Pilgrimage to Mecca in Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland No. 3/4 (Oct. 1950).
- Beckingham (C.F.) SOME EARLY EUROPEAN TRAVELLERS IN ARABIA in Ninth SEMINAR FOR ARABIAN STUDIES held at The School of Oriental & African Studies and the Institute of Archaeology London on 7th-9th July 1975 (1976)
- King (R.) The Pilgrimage to Mecca: Some Geographical and Historical Aspects Erdkunde Bd. 26 H. 1 (Mar. 1972).
- Pailin (A.D.) British views on religion and religions in the age of William and Mary in Method & Theory in the Study of Religion Vol. 6 No. 4 (1994).
- Roper (Geoffreg) George Persy Badger in Bulletin (British Society for Middle Eastern Studies Vol. 11 No. 2 (1984) pp. 140-155
- Scott (W. H) University The Mediterranean Connection Philippine Studies Vol. 37 No. 2 (Second Quarter 1989).
- Warren (Jeremy) Gaspare Fantuzzi: A Patron of Sculpture in Renaissance

Bologna‚ The Burlington Magazine‚ Vol. 149‚ No. 1257‚ Sculpture (Dec.‚ 2007)‚ pp. 831–835

سابعًا: مواقع الانترنت

- المزيريب، ويكيبيديا الموسوعة الحرة على الانترنت:
http: / /ar.wikipedia.org /wiki /%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B2%D9%8A%D8%B1%D9%8A%D8%A8

- قبر حواء: ويكيبيديا، الموسوعة الحرة
http: / /ar.wikipedia.org /wiki /%D9%85%D9%82%D8%A8%D8%B1%D8%A9_%D8%A3%D9%85%D9%86%D8%A7_%D8%AD%D9%88%D8%A7%D8%A1

Manuel I in : Encyclopedia Britannica online: http: / /www.britannica.com /EBchecked /topic /363107 /Manuel–I